شَهِندَا

obeikan.com

الكتاب : شهندا

المؤلف : داليا مصطفى

تصميم الغلاف : إسلام علام

تدقيق لغوي : محسن عباس غريب

رقم الإيداع : 2014/16536

الترقيم الدولي : 978-977-6436-776-0

الطبعة الأولى : 2015

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت-02-35860372 011-27772007

Noon_publishing@yahoo.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

obeikan.com

شَـــهِـنْـــدَا

رواية

داليا مصطفى

obeikan.com

obeikan.com

إهداء

إلى كل من يعرف (نور وبدر البدور)

لكل من عاصرهم وآمن بهم حتى وصلنا إلى تلك اللحظة .

لأمي ولأبي ونقاشاتنا المستمرة..

لأختي وغرفتنا الصغيرة وسهرنا معًا حتى شروق الشمس ..

obeikan.com

لزوجي وابني الذي لم يُولَد بَعد ..

لكم أهدي جزًا من روحي .

داليا مصطفى

obeikan.com

سوق مدينة الأحلام

كان سوق مدينة الأحلام قد أصبح في أقل من عشرين عامًا مركزًا هامًا للتجارة في كل أرجاء جزيرة البحر العظيم، فبعد ضم مدينتى الينابيع الساخنة و مدينة الوادى الجميل و تكون مدينة الأحلام على يد الحاكم نور الدين بعد زواجه من ابنة عمه الحاكم عماد الدين حاكم الوادى الجميل –سابقًا-، أصبحت مدينة الأحلام من المدن الهامة في الجزيرة.

وكان ازدهارها نابعا مما كانت عليه كلتا المدينتين – الينابيع الساخنة و الوادى الجميل – من خبرة في التجارة و الزراعة بإلاضافة إلى حكمة الحاكم نور الدين، الذى ظل لمدة كبيرة يشبهه الناس بالسلطان بشير الأول الوحيد الذى كان يحكم أكبر مملكة في الجزيرة و التى انقسمت على يد أبنائه بعد موته.

و كان اليوم هو يوم عودة التجار من رحلتهم السنوية محملين بالبضائع من مختلف مدن الجزيرة، لهذا كان السوق مزدحمًا، فقد كان هذا يوم ينتظره كل من بالمدينة.

كان السوق يقع في منتصف العاصمة و هو ساحة كبيرة تراصت فيها الدكاكين لتجعله أشبه بمجموعة من الشوارع المتداخلة.

وفي منتصف السوق تقريبًا في أحد الدكاكين وقف تاجر شاب خلف المنصة المعروض عليها مجموعة من الحلي و الأحجار المختلفة، و إلى جواره علقت الأثواب القماشية المختلفة من حرير و قطن و كتان و غيرها من خامات مختلفة ذات الألوان الزاهية، و أخذ ينادى على المارة:

- من يريد أفضل أنواع الحلي.. من يريد أجود أنواع الأقمشة. .

ومن حين لآخر يلقي بنظراته الضاحكة إلى الدكان المجاور له، حيث يجلس رجل كبير في السن لا يحوي دكانه الألوان الزاهية والبضائع المتنوعة كما هو الحال في دكان الشاب، بل كانت هناك الكثير من الآنية الزجاجية متشابهة الشكل تحوى أنواع عديدة من التوابل والبهارات والتى لم تستحوذ على اهتمام المارةفي السوق كحال باقي الدكاكين.

ابتسم الرجل كبير السن وهو يحرك يديه داخل لحيته الرمادية الطويلة نسبيًا في حين تابع الشاب بحماس أكبر:

- من يرد الحرير. ... أجود الأنواع.

كانت حماسته تزداد وهو يرى تجمهر الزبائن حول دكانه يتفحصون بضائعه، وأخذ يرتب بعض قطع الحلي التى بعثرت من قبل الوافدين على دكانه وهو يحاول قدر المستطاع الحفاظ على نظره موزعًا بين الحلي والأحجار التى أمامه، وبين زبائنه الذين يعبثون بها، كما حاول ألا يجعل من مراقبته للحرس الملكى الذى يجوب السوق أمرا مشتتًا له، فقد كان هناك الكثير من الحرس الملكى في السوق غير حرس الأمن الذين في السوق بشكل دائم، ليحافظوا على الهدوء في يوم العودة، وما كان يشغل التاجر الشاب هو استغلال بعض الحرس لنفوذهم وقوتهم لأخذ البضائع من التجار بلا مقابل، وقبل أن يعيد الشاب انتباهه إلى بضائعه ودكانه، سمع صوت أجش يقول بحدة محاولاً المرور من بين الزحام:

- أفسحوا لى الطريق الآن.

كان أحد الحرس الملكى بثيابهم ذات اللونين السوداء والبيضاء، كان يدفع المارة عن طريقه ليستطيع العبور، حاول التاجر رؤية وجهه ولكنه لم يستطع بسبب الزحام، وصل الحارس إلى أحد الدكاكين، كان من الصعب بسبب تجهمر المارة حول الحارس أن يراه التاجر، ولكنه سمع صوت التاجر المزعور وهو يسب الحارس، ومن ثم صوت ضحكات الحارس المستهزئة، شعر التاجر الشاب بالغضب، وفكر " لقد تجاوز هؤلاء التجار حدودهم " وأعاد نظره إلى زبائنه وهو يتخيل كم من الرائع أن يفكر أحد هؤلاء الحرس في الوقوف أمام دكانه ليستطيع رؤيته عن قرب، وقطع تخيلاته صوت سيدة تقف أمام دكانه تقول:

- هل هذا الحرير من الجنوب حقًا؟ أم أنه مقلد؟

فابتسم التاجر لها بهدوء وهو يقول مؤكدًا:

- بالطبع سيدتى، لقد اشتريته بنفسى صباح اليوم من تجار العودة؟

تجارة العودة هو اللقب الذى يطلق على التجار الذين يسافرون في الثلث الأخير من العام لشراء البضائع المختلفة من أنحاء الجزيرة، ويعودون في آخر العام، أخذت السيدة تتفحص القماش من جديد، حين أتت فتاة بدا عليها الشرود، وقد ارتدت فستانا أسودا طويل الأكمام وقد غطت شعرها بوشاح أسود، ووقفت تعبث بالحلي ولكنها لم تكن تختار شيئًا.

نظر لها في بادئ الأمر وهيتتفحص الحرير:

- لن تجدي مثل هذا الحرير إلافي الجنوب، يمكنني أن أتعهد لك بهذا سيدتي.

ولكنه لم يستطع منع نفسه من اختلاس نظرة سريعة مليئة بالشك تجاه الفتاة ذات الأسود، في حين أعادته السيدة إليها وهى تقول:

- حسنًا أعطني ثلاثة أمتار من كل لون.

لف للسيدة الأمتار الثلاثة من الألوان التي اختارتها، ثم نظر إلى الفتاة وهو يقول محاولاً إخفاء شكله:

- هل هناك ما أستطيع أن أخدمك به سيدتي؟

فرفعت الفتاة وجهها إليه ببطء بعد أن أفاقها صوته من شرودها، ولثوانٍ التقت عينا التاجر بعينى الفتاة البنية الواسعة التي تشبهان حجر العقيق في نقائهما، وصفائهما، مرت ثواني وكأنها ساعات، شعر

التاجر فيها أنه يغوص في عمق عينيها، نسى فيهما أمر الحارس، وشكه فيها، كان هناك شئ في عينيها يجذبه بشدة، فبالرغم من صفائهما الشديد كان بداخلها حزن عميق، حزن لا يتناسب معها، شعر أنه يود أن يسألها عن سبب هذا الحزن، أن يمحيه تمامًا من عينيها، كانت بشرتها صافية .. كانت مختلفة عن كل من راهن من قبل.

لم يجد التاجر صوته ليعيد عليها سؤاله، وخيم صمت عميق لإخفاء وجهها، وقد أمسكت بإحدى القلادات التي أمامها - دون أن تنظر ماذا اختارت – كانت قلادة بها قلبان من الياقوت الأحمر، متماثلين وقد ازدانت حوافهما ببعض من الأحجار الشفافة، ومتصلان معًا بعقد ذهبى، كانت من أجمل القطع التى أمامها.

قالت مسرعة محاولة قطع هذا الصمت:

- ما ثمن تلك القلادة؟

شعر التاجر بالارتباك الشديد وهو يعود إلى أرض الواقع من جديد، وقال محاولاً السيطرة على نفسه:

- إنها بعشرين قطعة نقدية.

فأخرجت الفتاة النقود ووضعتها أمامه وهى تسأل محاولة أن تجعل سؤالها عاديًا وطبيعيًا:

- ما اسمك؟

مرر التاجر يديه بين خصلات شعره البنى بفخر وهو يقول:

- شعبان تاجر الحلي والمرجان. ..

بدى على الفتاة الحذر وهى تضع القلادة في جيبها وتهمس محاولة ألا تلتقى عينيها بعيني شعبان من جديد:

- شعبان أريدك أن تساعدنى إذا ما وقعت في خطر ما.

ثم استدارت مسرعة وكأنها ندمت على ما قالت وأضافت:

- اسمي شهندا.

وسارت مسرعة بخطوات رشيقة لتختفي بين زحام السوق تاركة شعبان يشعر بالحيرة من تصرفها، وفي عقله تدور كلماتها الغير مفهومة. .

اختفت شهندا ولا تزال عينا شعبان تتأمل النقطة التى اختفت فيها، وقد نسى تمامًا أمر السوق والعمل، ولم يخرجه من أفكاره سوى صوت غليظ وعالٍ لتاجر كبير في السن يقف إلى جواره وينظر في نفس الاتجاه الذى ينظر إليه شعبان قائلاً:

- جميلة، أليس كذلك؟

فأفاق شعبان من شروده، وقد شعر بالارتباك، فأخذ يعدل من وضع بعض قطع الحلي التي على منصته محاولاً تهدئة نفسه وهو يقول:

- ماذا هناك يا زهران؟

فابتسم زهران وهو يعيد نظره إلى المارة أمامه وقال:

- لا شئ، أتعلم من فوائد يوم العودة هو رؤية الفتيات الجميلات اللاتى تأتين من المدن و الأقاليم المختلفة. .

أنهى كلامه وهو يتحرك عائدًا إلى دكانه، فتبعه شعبان وهو يقول:

- زهران أنت تعلم أننى لا أهتم لمثل تلك الأمور.. ولكنها. .

فقاطعه زهران دون أن ينظر إليه:

- مختلفة.. طريقة سيرها وملابسها.

أخذ شعبان يتذكر عينيها البنية الواسعة وبشرتها الرقيقة، ولكنه أسرع يقول محاولاً إنهاء الحديث عنها:

- بلى، ولكن ما دخلى أنا على كل حال.

وسار عائدًا إلى دكانه وهو ينادى على بضائعه محاولاً العودة إلى حالة النشاط التى كان فيها مخرجًا شهندا تلك من أفكاره.

ولكن كان من الصعب عليه أن يتناسى كلماتها المحيرة، فما معنى ما قالته، وما الذى تريده، فقام زهران وقد فهم رغبة صديقه في إغلاق موضوع الحديث عن الفتاة:

- هل ستأتى معى إلى إقليم وادى الحياة؟

فقال شعبان وهو يرتب بضائعه التى بعثرها الزبائن:

- ولماذا. .؟

- لأشترى بعض البضائع التى أحتاج إليها.

- ولمَ لمْ تشتر ما تريد من التجار صباح اليوم؟

فابتسم زهران ساخرًا من صديقه وهو يقول:

- يا شعبان إن ما أحتاج إليه لا أجده مع هؤلا ء التجار، الوحيدون الذين يستفيدون من جولة التجار تلك هم أنتم يا تجار الحلي والأقمشة، وفي بعض الأحيان إن استطاع التجار دخول مدينة النجوم السبع أو كوكب الأبيض و الأسود يستفيد النجارون، أما نحن فلا نستفيد شيئا.

ومن ثم أضاف بفخر:

- لا يوجد أفضل من الأعشاب والتوابل في إقليم وادى الحياة

فضحك شعبان بشده وهو يقول:

- أيها الحاقد. .. سيسر الحاكم إن سمع كلامك هذا.

فشاركه زهران الضحك ومن ثم قال وقد بدى أكثر جدية:

- هل ستأتى معى؟

- ألن تحضر خطبة الحاكم غدًا، إنه يوم ختام المهرجان.

كانت هناك سيدتان تقفان أمام دكان شعبان تختاران بعض الأقمشة، فقال لهما شعبان وهو يبتسم مجيبًا على سؤالهما:

- إنه لون منتشر هذه الأيام يا سيدتى، ولكن الأبيض سيتوافر عندى بعد انتهاء مهرجان العودة.. بعد غدٍ

أخذت السيدتان تتناقشان في حين تابع زهران:

- سنعود باكرًا كما أنك ستقضى يومًا لن تنساه.

فنظر له شعبان بزاوية عينه بشك، وأخذ يقيس مترين من القماش الذى اختارته السيدتان ولفه لهما، ثم نظر إلى زهران وهو يقول بشك:

- هل نسيت أنك أخبرتنى بهذا المرة السابقة، والتى تسبقها، والتى تسبقها، وفي كل مرة لا أنال سوى بقائى بمفردى وأنت تختار توابلك وأعشابك التى لا أفقه فيها شيئًا.

فضحك زهران وكاد أن يقول شيئًا لولا أنه سمع صبى صغير يناديه، كان صبيا صغيرا لم يتجاوز الأحد عشر عامًا بعد، اتسعت ابتسامة زهرن ما إن رآه، في حين دخل الصبى الدكان ورمى نفسه في أحضان زهران، فابتسم شعبان وقال:

- خذ زهران الصغير معك. .. سيستمتع.

وعاد ينادى على بضائعه من جديد، فقد كان اليوم قد شارف على الانتهاء وقد خف الزحام في السوق عن الصباح، وكان شعبان ينادى على بضائعه حين سمع صوت الصغير وهو يقلده قائلاً:

- من يريد أفضل أنواع الحلي.

فنظر له شعبان وضحك وهو يقول:

- إنك تاجر ماهر يا زهران، حتى أنك أفضل من جدك العجوز.

ونظر إلى صديقه مغيظًا له، في حين قال الصغير:

- شعبان ما رأيك، أن تأتى معى بعد أن تنهى عملك، سأريك سيفي الجديد والحركات الجديدة التى تعلمتها.

فابتسم شعبان وهو يقول معتذرًا:

-أنا مضطر للعودة إلى منزلى، فأنا مرهق جدًا اليوم، أعتذر لك.

بدت خيبةالأمل على الصغير، ولكن شعبان تابع بمرح:

- اليوم هو آخر أيام العمل الكثيف في السوق، فغدًا حفل ختام مهرجان العودة، وبعد هذا سيكون العمل أقل فيمكننا أن نقضى الكثير من الوقت معًا.

فابتسم زهران الصغير وقد اقتنع بكلام شعبان، في حين نظر شعبان إلى جده وسأله وقد بدا الحزن عليه عندما تذكر سالم ابن زهران ووالد الصبى الصغير:

- كيف حال سالم الآن؟

بدا الأسى على زهران، ولم يجب لثوانٍ حاول خلالها أن يتمالك نفسه، ثم قال:

- نحمد الله على كل شئ. .. لأصدقك القول يا شعبان إنه لا يتحسن، لقد تدهورت حالته كثيرًا.

كان زهران الصغير يعيد ترتيب بعض قطع الحلي فوق المنصة حين ألقى شعبان نظرة حزينة عليه، وقال محاولاً إقناع صديقه:

- أرجو أن تقتنع بكلامى يا زهران وتقدم طلبا للحاكم، سيساعدك هذا الأمر كثيرًا ولا أعتقد أن الحاكم سيرفض مساعدتك. .. أنا لا أفهم حقًا لم تعارض بهذا الشكل؟

فابتسم زهران ولم يجبه، فأعاد شعبان نظرة إلى الصبى الصغير وهو يفكر بحزن في والده المريض، كان يتمنى حقًا أن يستطيع مساعدتهم على علاجه، فلقد

أصيب سالم منذ ستة أشهر بمرض نادر، وهو يعمل مع باقى العمال على ترميم السور الشرقى للمدينة، لم تستطع وصفات زهران العطار في علاجه وتحير الحكماء في حالته كثيرًا، وظن البعض أنه مرض قد تكون له علاقة ببعض قبائل الميمارق التى تسكن بالقرب من السور الشرقى للمدينة، ولأن السفر من مدينة لأخرى يحتاج إلى إذن الحاكم، كان شعبان يتمنى أن يستطيع إقناع زهران بزيارة الحاكم لطلب إذنه.

قطع الشيخ زهران أفكاره وهو يقول بغضب:

- لقد رأيت هذا الحارس أليس كذلك؟ الحارس الذى أخذ البضائع من حسان

فأومأ له شعبان، فتابع:

- لقد تطاول الحرس كثيرًا، ففي الأمس اثنان منهم كانوا عند دكان سعيد في نهاية السوق وأخذوا منه بضائع بما يقرب المائتي قطعة نقدية. .. هذا ما يستحق أن نطلع الحاكم عليه حقًا، إنهم ينزلون السوق ليحافظوا على الهدوء والاستقرار في أيام العودة وليس لسرقتنا نحن. .

وصمت قليلاً ومن ثم تابع:

- لقد زارنى سعيد والحاج منصور أمس، وقد اتفقنا على أن نعقد اجتماعا في مجلس التجار وننتخب أحدنا للذهاب ومقابلة الحاكم. .. فعلى ما يبدو أن وزير التجارة لن يفيدنا كثيرًا.

فأومأ له شعبان بالموافقة وهو يشعر بالغضب، الغضب من الحرس الملكى وأفعالهم، والغضب من عدم قدرته على إقناع زهران بالذهاب للحاكم لأجل ابنه.

تا بع زهران من جديد مناديًا على حفيده:

- هيا يا زهران فلنعد إلى المنزل.

وأخذ يجمع بضاعته إلى داخل دكانه بمساعدة حفيده، بينما ظل شعبان يفكر في كيفية إقناع صديقه، وبعد دقائق كان زهران قد أغلق دكانه وقاللشعبان:

- إلى اللقاء يا شعبان.

بينما اقترب الصبي من شعبان ليودعه، فقال شعبان من جديد:

- انتظر زهران أنت لم تقتنع بكلامى بعد.

- شعبان لا تشغل بالك بالأمر. .. هيا يا زهران.

وصمت قليلا ومن ثم تابع بمرح:

- فكر جيدًا سأتحرك غدًا في السابعة صباحًا، سأنتظرك.

وانصرف زهران بعد أن ترك شعبان في حالة من الحزن والحيرة والشعور بالعجز، فقد كان يتمنى لو استطاع مساعدته على علاج ابنه سالم، ولكنه كان يعلم أن هذا صعب خاصة مع شخص مثل زهران.

وأيضًا أمر حرس السوق كانوا يغضبونه بشدة، فقد كانوا يتجاوزون في أفعالهم يومًا بعد يوم، ولم يكن شعبان يحبذ أمر مجلس التجار هذا ؛ لأنهم نادرًا ما كانوا ينتهون إلى اتفاق جيد. .

وحين قاربت الشمس على المغيب، أغلق شعبان دكانه وسار إلى نهاية السوق حيث العربات، وقف قليلاً حتى أتت إحدى تلك العربات الضخمة ذات الأربعة خيول، توقفت وسأل السائق شعبان:

- هل تود الذهاب إلى القلعة ؟

فأومأ شعبان له، وصعد إلى العربة وجلس فيها، وبعد مرور دقائق تحركت العربة، لم تكن قلعة الحاكم نور الدين بعيدة عن السوق، وكان في العادة يسير شعبان هذا الطريق، وما هي إلا دقائق قليلة حتى توقفت العربة أمام الباب الخلفي للقلعة ، والذى لم يكن يظهر سوى الجانب الشرقى منها، فنزل شعبان وبعض الركاب الآخرين، دخل شعبان من باب الخدم وسار في الحديقة الخلفية للقلعة ، والتى كانت مليئة بالأشجار الصغيرة على جانبى الطريق الذى يقود إلى مطبخ القلعة وغرف الخدم في المبنى الملحق بالقلعة ، والذى كان إلى حد كبير يشبه القلعة ذاتها في الرخام الأبيض الذى يغطيها والزخرفة التى تشكل الأبواب، وإن كانت تصغر المبنى الرئيسى للقلعة كثيرًا، وقبل أن يصل شعبان إلى مدخل المبنى الملحق، وعند شجرة إلى يمينه تختلف

عن باقي الأشجار في قلة أوراقها، أزاحها واتخذ طريقًا جانبيًا بعد أن قطف زهرة منها وسار بين الأشجار الصغيرة مستمتعًا بالرائحة المنبعثة من الأزهار، وقبل أن يصل إلى نهاية الحديقة الصغيرة كثيفة الأشجار والتي تفصل بين المبنى الملحق والمبنى الرئيسى ليخرج من جديد إلى الطريق الممهد اصطدم برجل كبير السن عريض الأكتاف يرتدى ثيابًا رسمية، وقد ارتسمت على وجهه علامات الغضب الشديد لتجعل من عينيه أكثر ضيقًا مما هما عليه، واشتد تحدي ملامحه، ولوهلة بدا على شعبان الفزع، في حين قال الرجل بصوت غاضب:

- شادى. .. لقد تأخرت كثيرًا، كما أنك غادرت قبل أن يستيقظ الحاكم مما أغضبه حقًا.

ومع كلمات الرجل تبدلت ملامح شعبان من المفاجأة إلى الابتسام وقال:

- لقد أفزعتنى حقًا، هل تعلم هذا؟

واقترب من الرجل ووضع يديه على كتفه وتابع بمرح:

- نوار أنت تعلم اليوم هو يوم العودة، فكان على أن أذهب إلى السوق باكرًا لشراء أفضل البضائع من تجار العودة ومن ثم كان على الانتظار لبيعها، وهكذا.

وحرك يديه الحرة في إشارة للملل، ومن ثم صمت قليلاً ونظر إلى نوار، وقال بصوت أقل مرحًا:

- هل هو غاضب حقًا؟

كان شادى ونوار قد خرجا من وسط الأشجار الصغيرة إلى الطريق الممهدة التى تقود للباب الشرقى للمبنى الرئيسى للقلعة ، والتى كانت تظهر أمامهما برخامها الأبيض المائل للاصفرار، حين قال نوار:

- تعالى لمقابلة الحاكم في البداية، ومن ثم اذهب لتبديل ثيابك، إنه يريدك فيأمر هام، أمر له علاقة بقبائل الساسونين في الغرب.

فأومأ له شادي وهو يقول:

- حسنًا. .. إنها عادتهم السنوية، ولكن سيكون علي تبديل ثيابى أولاً.

ونظر إليه بمكر وتابع:

- أنت لا ترغب فيأن يرانى الحرس والخدم هكذا.

وأشار إلى ملابسه في حين قال نوار وهو لا يزال على صرامته:

- أنت تعلم أنها ساعة الراحة، والحرس الملكى على وشك الانصراف الآن.

فهز شادى كتفه بلا اهتمام وسار معه في صمت، ومن ثم قال مسرعًا وقد تذكر شيئًا هامًا:

- نوار أريدك أن تتحقق من أمر الحرس الملكى في السوق، لقد تخطوا الحدود، إن التجار في السوق يفكرون في عقد مجلس التجار.

فأومأ له نوار، وتابعا سيرهمافي هدوء، دخلا من الباب الشرقى للقلعة، وسارا معًا حتى وصلا إلى القاعة المؤدية إلى السلالم الداخلية للقلعة وقاعة الحكم وهناك شعر أن هناك أمر غير طبيعى، فقد كان هناك عدد كبير من الحرس أمام المدخل الذى يقود إلى قاعة الحكم، فترك

شادى مرافقه وهرول في اتجاه الباب وطلب من الحرس إفساح الطريق له، وما إن دخل حتى رأى الحاكم نور الدين مستندًا إلى ذراع زوجته، فتقدم منهما مسرعًا وهو يسند الحاكم بدوره ويقول:

- أمى ماذا حدث؟ ماذا هناك؟

كانت الحاكمة بدر البدور تمسك بذراع زوجها الحاكم نور الدين وقد بدى عليه الغضب الشديد، ولم تجبه بل قال الحاكم موجها كلامه للحرس:

- ضعوها الآن في سجن القلعة. ... وسأرسل الوزير نوار لاستجوابها.

فنظر شادي في اتجاه الحرس الذين يخاطبهم الحاكم فوجدهم ممسكين بفتاة في مقتبل عمرها، ترتدى ثوبا أسودا طويل الأكمام ووشاح أسود اللون وقع فوق كتفيها، تبكي وتحاول التخلص من أيدي الحرس التى قيدوها وما إن تلاقت عيناهما حتى قال بدهشة دون أن يتمكن من تمالك نفسه:

- شهندا.

فبدا عليها أنها للمرة الأولى انتبهت للوافد الجديد، فقالت بصوت خرج بصعوبة من بين دموعها:

- شعبان. .

نفذ الحرس ما أمر به الحاكم وسحبوا شهندا إلى خارج قاعة الحكم، وهى لا تزال تبكى وتستنجد بشعبان، بينما وقف شادي مكانه وقد عقدت الدهشة لسانه وجعلته غير قادر على الكلام.

* * *

(2)

شادي وشعبان

obeikan.com

كان شادي يجلس فوق فراشه في غرفته وقد شرد بعيدًا، لقد كان يفكر فيما رآه منذ دقائق في قاعة الحكم، لم يعلم ما الذي حدث تحديدًا، فقد صعد إلى غرفته سريعًا بعدما أخذ الحرس شهندا إلى سجن القلعة كما أمر الحاكم نور الدين.

كان لايزال جالسًا بثياب العمل البالية فوق فراشه الفخم في غرفته في الطابق الثالث من قلعة الحاكم.

فتح يديه ونظر إلى القلادة ذات القلبين الزمردين التى اشترتها منه في السوق، لقد وجدها على الأرض في قاعة الحكم حين سحبها الحرس للسجون، لقد كان هذا أكثر ما يحيره، لماذا توقفت أمام دكانه اليوم؟ هل كانت تعلم حقيقته؟ تعلم أنه الأمير شادى نور الدين ولى عهد مدينة الأحلام، وليس شعبان التاجر البسيط.

لقد كان هذا شيئًا مستحيلاً، فلا أحد يعرف عن عمله في السوق سوى الوزير نوار بعد الحاكم نور الدين.

كانت الأسئلة تغزو رأسه بلا هوادة لقد كانت تبدو هادئة حزينة، تذكر وجهها الحزين، عينيها الواسعتين اللتين تشبهان حجر العقيق، صوتها الناعم كالحرير – إن أمكن تشبيه الصوت بالحرير – لم يتخيل أن تكون خطيرة، أن تشكل تهديدًا، كلماتها له فى السوق، لقد ظن أنها مجرد كلمات عبثية اعتاد سماعها من بعض الفتيات، ولكن ما معناها؟ ؟ ولماذا قالتها له إن لم تكن تعرف من هو.

نهض شادي من فوق فراشه محاولاً أن يخرجها من تفكيره، وحاول أن يشغل نفسه في تبديل ملابسه، لكنه لم يستطع، فلقد أخذ عقله في

التفكير في كل الاحتمالات الممكنة لتفسير ما رآه منذ دقائق في قاعة الحكم.

وأخيرًا قرر النزول إلى القاعة وسؤال والده بنفسه، فبدل ملابسه ونزل للقاعة.

كان والده في قاعة الحكم ومعه الوزير نوار وعمه الأمير جاسم قائد الحرس الملكي، وعندما دخل كان الوزير نوار يقول لحاكم:

- مولاي، إنها لا تتكلم، لا تزيد عن البكاء.

بدا على الحاكم التفكير، ومن ثم قال بغضب ممزوج بالحيرة:

- حسنًا، اتركوها في سجن القلعة ، لا أرغب في أن ينتشر الأمر يا نوار.

فانحنى نوار وهو يقول:

- كما تأمر مولاى.

في حين تقدم شادي عبر القاعة المستطيلة المغطاة بالرخام الأبيض والأعمدة المذهبة، والتى تمتد على طولها الطنافس الذهبية والحمراء القانية، وفى نهاية القاعة عرش الحاكم وبجواره مقعدان أقل فخامة منه وإلى يمين عرش الحاكم باب مزدان بالذهب يقود إلى قاعةأقل حجمًا. وهو يقول متسائلاً:

- تتحدثون عن شهندا؟

شعر شادى بالندم عندما ذكر اسمها، لم يكن يريد لوالده أن يعرف بأمر توقفها أمام دكانه، فهو لا يعرف بعد سبب توقفها ،وأمر كهذا قد يجعل ولده يغضب أو يمنعه من نزول السوق، وهذا ما كان لا

يريده شادى، ولكن الحاكم لم يبد عليه أنه انتبه لمعرفة شادى باسمها بل نظر به،وقال بذات الغضب والحزن:

- هل هذا هو اسمها؟ نعم. ..

تابع شادي تقدمه وجلس على أحد المقاعد المذهبة المصفوفة على جانبى القاعة، حين تكلم الأمير جاسم بحدة:

- نور سأبدأ التحقيق مع الحرس، من المفترض أنه يتم تفتيش من يدخل القلعة.

فأجابه الحاكم:

- إنها مجرد فتاة صغيرة يا جاسم، لهذا أعتقد أنهم أهملوا أمر تفتيشها، ولكن أبدأ في تحقيقك وانظر ماذا سترى؟

فتحدث شادي محاولاً ألا يظهر اهتمامه بالموضوع:

- ماذا حل بها؟

فقال الأمير جاسم:

-ستنقل في الغد إلى مبنى القاضي.

فقام شادي وتوجه إلى المقعد المجاور لعرش الحاكم والذي كان مزدان بنقوش قرمزية وجلس ،وهو يقول بأدب:

- هل يمكنك يا أبي أن تخبرنى بما حدث؟

بدا على الحاكم الحيرة،وهو يجيبه:

- لا أدرى يا بنى حقًا. .. لقد كنت كما هى العادةفي وقت استقبال الشكاوى لأرى إن كان لأحد ما مشكلةفي يدى حلها، أو وقع عليه ظلم أستطيع رده، ودخلت هى مع من دخل، طلبت منى الحديث منفردًا، وبالرغم من أن الحرس هم الوحيدون الذين كانوا معنا، فسألتها إن كانت تقصد الحرس؟ ولما وجدت ما هى عليه من صغر السن، ظننت أن ما تحتاج إليه قد يكون أمرا ما تخجل من الحديث فيه أمامهم، ولم أتوقع منها شرًا لهذا أمرت الحرس بالانصراف، وقمت وتقدمت منها بضعةأقدام لأعرف منها ما تريد، وما إن بدأت حديثها حتى أخرجت خنجرًا صغيرًا من جيبها وهرولت تجاهي،ولكن قبل أن تمسني سقطت أرضًا، ومن المفاجأة اختل توازني. .. طلبت من نوار استجوابها، وكان الآن يخبرنى أنها لم تزد عن البكاء، لا أعلم ماذا تريد؟ أو من دفعها للقيام بهذا؟ فلقد ذكرت شيئًا عن الانتقام.. لا أعلم.

وضع شادي يديه في جيبه يتحسس القلادة بغضب ،لقد كانت مخططة لكل شئ، لقد توقفت أمام دكانه وهي تنوي إيذاء الحاكم.

تمالك نفسه وهو يقول محاولاً إقناع والده:

- هل يمكنك أن تسمح لى بأن أذهب لرؤيتها. .. يمكنني جعلها تتكلم.

ومن جديد حاول شادي ألا يظهر اهتمام مبالغ فيه، فلو شك والده في الأمر فلن يستطيع التحدث مع شهندا، وقد كان التحدث معها هو أكثر ما يرغب في القيام به، فاكتفى بما قال ونظر إلى والده ينتظر رده، فبدا التردد واضحًا على الحاكم في حين بدا الأمير جاسم غير موافق تمامًا على تلك الفكرة، وهذا ما تأكد من ملامحه عندما تكلم الحاكم:

- لا أعلم بنى. ... حسنًا لك هذا.

فحيا شادي والده وخرج من قاعة الحكم برفقة أحد الحرس ليوصله إلى الزنزانة التى وضعت بها شهندا، كانت سجون القلعة لها مدخل من المبنى الرئيسى للقلعة فهى عبارة عن مبنى صغير ملحق وممتد أسفل المبنى الرئيسى، سار شادى خلف الحارس في ممر طويل في الاتجاه الغربى لقاعة الحكم، وفي نهاية الممر باب خشبي يحرسه حارسان يختلف زيهما عن زى الحارس الذى يرافق شادى، وما إن وصلوا إلىهذا الباب حتى تنحى أحدهما عن الباب وفتحه الآخر لهم، وكان هذا الباب يقود إلىسلالم تؤدي إلى أعلى وإلى أسفل، تبع شادي الحارس إلى أسفل، وفي نهاية السلالم باب حديدي ضخم، طرقه الحارس المرافق لشادى، ففتح الباب حارس ضخم الجثة، وما إن رأى شادي حتى انحنى قائلاً:

- تفضل مولاى.

فسار شادى وخلفه الحارس المرافق له، لم يكن شادى يتردد كثيرًا على سجون القلعة ، فلم يزرها من قبل سوى مرة أو مرتين على الأكثر، وكان الطريق خلف الباب الحديدى عبارة عن ممر ممتلئ بالزنازين التى كان بعضها فارغ، والبعض يوحى بأنه فارغ، وبعضها يحوي وجوه تنظر للمارة بخوف وتوجس شديدين، توقف شادي على صوت الحارس الذى قال له:

- تفضل مولاى.

وأشار إلى زنزانة إلى يمين شادي تماثل باقي الزنازين، وتابع:

- من هنا مولاى.

وطلب من حارس الزنزانة أن يفتحها، وإثر الصوت الذى أصدره فتح باب الزنزانة الحديدي الصدئ استدرات شهندا ،والتى كانت تجلس على حجر كبير في الزنزانة هو بمثابة المقعد والفراش، لترى من هو القادم، في حين طلب شادي من مرافقه أن ينتظره في الخارج، ودخل شادى بينما أغلق حارس الزنزانة بابها من جديد، وما إن تبينت شهندا القادم حتى قامت مزعورة في اتجاه شادى، وبلا تفكير أمسكت بساعديه وعيناها مملوءة بالدموع وهي تقول بألم:

- آه شعبان، ماذا فعلو بك؟ لا بد أنني السبب. .

وازدادت كثافة الدموع في عينيها، فنظر شادى إلى يديها الممسكة بساعديه، وعلى ثغره ابتسامة وهو يقول:

- اطمئني لم يفعل أحدا بي شيئا كما أنني لست بشعبان.. أنا الأمير شادى نور الدين ولي عهد مدينة الأحلام.

للحظات بدا عليها الذهول، وببطء شديد بدأت تستوعب ما قاله، فسحبت يديها بعنف واستدارت للجهة الأخرى وهى تحاول مسح دموعها، فتعجب شادي من تبدل موقفها المفاجئ، فتابع مستفسرًا:

- ماذا هناك؟

فأجابته بصوت تحول من الذعر والقلق إلى صوت شديد الجفاء قائلة:

- لا شئ.

فجلس شادي على الحجر الذى كانت تجلس عليه، وهويقول:

- أنا هنا لمساعدتك ،وأعتقد أن كون اسمى شعبان أو شادى لن يعوق هذا.

لم يبد عليها أنها سمعت ما قاله شادى، ومرت لحظات من الصمت استطاع شادى خلالها أن يتامل شعرها الأسود الذى انسدل إلى خصرها في مرونة، وقد بدا متألقًا في الضوء الخافت الآتى من النافذة خلفها بعد أن سقط الغطاء الذى كان يخفي رأسها في السوق، وعندما لم يبد عليها أنها ستتكلم أو تلتفت إليه، قام وقال محاولاً إخافتها لتتكلم:

- حسنًا، سوف يعرضك الحاكم نور الدين على القاضي غدًا، وستكون محاكمتك هنا في القلعة ، تعلمين ما معنى هذا؟ هذا يعنى أن قضيتك كبيرة والحكم فيها قد يصل إلى الإعدام، أو في أفضل الأحوال للنفي خارج البلاد.. لقد تعرضتي بالأذى للحاكم.

واستدار شادي مستعدًا لمغادرةالزنزانة، وهو يرهف السمع ليرى هل تأثرت بما قاله، وكما توقع وقبل أن يطلب من الحارس أن يفتح له باب الزنزانة سمعها تقول بصوت هامس:

- حسنًا. .. أنا.

فاستدار شادي من جديد وهو يصطنع اللامبالاة:

- هل ستخبريننى كل شئ إذًا؟

فعاود صوتها الجفاء من جديد وهي تقول:

- ماذا تريد أن تعرف؟

فجلس شادى من جديد وهو يقول بسخرية:

- حسنًا دعينا نفكر.. ماذا أريد أن أعرف؟

وتغير صوته من السخرية إلى القليل من الغضب:

- أنا بالطبع أريد أن أعرف شيئين، أولاً لماذا طلبتي منى العون؟ وهل كنت تعلمين من أنا؟ وثانيًا، لماذا حاولتى قتل الحاكم نور الدين؟ ومن دفعك لهذا؟

فاستدارت له شهندا ورمقته بنظرة ازدراء ومن ثم استدارت من جديد قبل أن تقول بذات الجفاء:

- أولاً، هذا ليس من شأنك، وكما سبق وأخبرت والدك أنا أريد دم أمى.

.

فقام شادى وأبدى عدم ترحيبه بما قالته، ودار حولها ليواجهها ونظر في عينيها العقيقتين قائلاً بحدة:

- أعتقد أن كلمة ليس من شأنك ليست في محلها، والآن لنعيد السؤال مرة أخرى، لماذا طلبتي منى المساعدة؟ وهل كنت تعلمين من أنا؟

فنظرت له ولا تزال نظرة الازدراء تعلو وجهها وهى تحدق به، وامتلأت عيناها بالدموع ولكن صوتها خرج قويًا وجافًا وهى تقول:

- سبق وقلت لك هذا ليس من شأنك.

شعر شادى بالضيق الشديد ونفاذ الصبر، فقال:

- من شأن من إذًا؟

فاستدارت وهي تقول بكبرياء وجفاء لا يتناسبان مع وضعها:

- إنه شأنى أنا، وأعتقد أن مثل هذا الشئ لن يؤثر في استجوابك هذا.

فأخرج شادي من جيبه قلادة ذات قلبين متماثلين مزدانين بالأحجار وقال:

- أعتقد أن تلك من شأنك أيضًا، أليس كذلك؟

ونظر إلى القلادة ومن ثم تابع وقد ارتسمت على وجهه علامات السخرية :

- أعجب لفتاة تريد الانتقام أن تسلى نفسها بشراء الحلي.

فنظرت له شهندا بنفس ملامح الازدراء التى تعلو وجهها، ومددت يدها لتلقتها، فأبعدها شادي عنها ،وهو يقول متلذذًا بالوضع:

- لا.. أجيبيني أولاً عن سؤالى فتعود لك.

فاستدارت موجهة له ظهرها وهى تصطنع اللامبالاة، فتابع شادي:

- من أرسلك؟

فقالت دون أن تنظر إليه:

- لم يرسلني أحد.

شعر شادي بالغضب الشديد فقال بحدة:

- لا تفقديني أعصابي، من أرسلك؟

فقالت بتعالٍ وكبرياء شديدين:

- أنت لا تعرف مع من تتكلم، أنا الأميرة شهندا ولية عهد كوكب الأبيض و الأسود، ووالدتي هي التي أتيت لآخذ بثأرها من والدك. .. أمي هي الحاكمة يولاندا.

ظهر التعجب على شادي ولكن سريعًا ما تمالك دهشته وقال بذات الغضب والقوة:

- وكيف تثبتين هذا؟

فمدت يديها للخلف حيث يقف شادى لتريه خاتم كان في أصبعها الأوسط، كان شادى يعرف شكله جيدًا، بالنخيل المقسومة والسهم الذى ينبت أسفل النخلة، خاتم مدينة كوكب الأبيض و الأسود، لم يعرف كيف عليه أن يتصرف، كان شيئا كل المعطيات داخله تدفعه للتصديق، بينما أحاسيسه تدفعه لتكذيبها، فقرر أن يتركها ليفكر في هذا بعيدًا عنها، فقام بوضع القلادة على الصخرة التى كان يجلس عليها، وأمر الحارس بفتح الزنزانة، وقاله له:

- أريدكم أن تنقلوا الأميرة شهندا إلى زنزانة الأسرى.

وقبل أن يخرج سمع شهندا تهمس بصوت تخلى عن جفائه وازدرائه:

- إنه شأن شعبان فقط.

فنظر إلى الدرع الحديدي المقابل له، ورأى خيالها وهى تمسك بالقلادة، فارتسمت على ثغره شبح ابتسامة وتابع طريقه إلى الخارج.

* * *

obeikan.com

obeikan.com

(3)

سار شادى عائدًا إلى قاعة الحكم وهو يفكر في شهندا، هل هى حقًا وليه عهد مدينة كوكب الأبيض و الأسود؟ ولكن كيف؟ لقد توفيت الحاكمة يولاندا في حرب الجنوب ومن بعدها تولى الحكم وزيرها ومساعدها جواد.

كان قد سبق له أن سمع اسم الأميرة شهندا مرة أو مرتين من قبل، فلم تكن العلاقة بينهم وبين مدينة كوكب الأبيض و الأسود جيدة، كل ما يعرفه عن تلك الحاكمة يولاندا، أنه في عهدها وحدت الجنوب تحت إمارتها، وهى من قادت حرب الجنوب ضد الحاكم نور الدين في أول عهده، وأن والده قتلها في الحرب، وأنه بقتلها حقق النبوءة التى قالها له واحد من بني الميمارق قبل ميلاده، ومن ذلك الحين ولا أخبار من الجنوب وخاصة بعد المعاهدة بين الحاكم نور وأمراء الجزيرة والتى كانت تحدد رحلة التجار ولم يتم ذكر اسم الأميرة شهندا سوى قليلاً.

قابل شادى عمه الأمير جاسم وهو في طريقه إلى قاعة الحكم، والذى سأله ما إن رآه:

- هل عرفت منها شئ؟

بلا تفكير وجد شادي نفسه يجيب عمه كاذبًا:

- لا لم تقل شيئًا.

لم يبدو التصديق على وجه الأمير جاسم، فتجاوزه شادي وتابع سيره، فقد كان يعرف أن الأمير جاسم سيعرف ما قالته له شهندا ولكنه لم يرغب في أن يخبره.

تابع سيره إلى قاعة الحكم، وما إن دخل حتى بادره والده:

- هل تحدثت؟

فحياه شادى ومن ثم قال:

- بلى، تقول إنها الأميرة شهندا ولية عهد كوكب الأبيض و الأسود، وابنة الحاكمة يولاندا، لقد أرتني الخاتم الملكى ولكن. ..

وقبل أن يكمل شادي كلامه كان وجه الحاكم قد شحب لونه، ولكن شادي لم يلاحظ هذا، بل صمت ثوانى مفكرًا ثم تابع:

- أليست تلك هى الحاكمة التى قتلتها في حرب الجنوب تحقيقًا للنبوءة.

فأومأ الحاكم بالإيجاب وهو شارد الذهن، فاستطرد شادى قائلاً:

- ماذا هناك يا والدى؟

- لا شيء بني لا شيء.

شعر شادي بالتعجب من شرود والده، فقال:

- حسنًا، سأنصرف أنا الآن، لا أعرف كيف يمكننا التأكد من كلامها، فإرسال أحد لكوكب الأبيض و الأسود قد تكون عواقبه في كلتا الحالتين غير طيبة، فأنت تعرف المدعو جواد وطريقتك في فهم الأمور،

فقد يتم تفسير أي حركة على أنها خرق للمعاهدة.. يمكننا التأكد عن طريق الختم، أليس كوكب الأبيض و الأسود من عاداته الختم مثلنا.. يمكننا إرسال أحد لتتحق من الختم الملكى.

وعندما تأكد شادى أن والده لم يسمع ولا كلمة مما قاله:

- والدى أنت لا تسمعني.

فلم يبد على الحاكم أنه سمع ابنه، فازداد تعجب شادي، ولكنه لم يكن يمتلك الوقت للتفكير في سبب شرود والده، فقال:

- سأنصرف أنا.

وقبل أن يتوجه شادى إلى غرفته تذكر أنه لم يخبر والده عن نقله لشهندا إلى زنزانة الأسرى، فعاد من جديد إلقاعة الحكم وقال لوالده الذى كان لايزال على شروده:

- والدي لقد أمرت بوضع شهندا في زنزانة الأسرى، إن كانت الأميرة حقًا فهذا يضيف نقطة إلى صفنا، أليس كذلك؟

فلم يرد عليه الحاكم فكرر شادى كلامه من جديد:

- لقد أمرت بوضع شهندا في زنزانة الأسرى. .

فأومأ الحاكم بالإيجاب، فتابع شادى وقد بدأ يشعر بالقلق:

- والدى، هل أنت بخير؟

فابتسم الحاكم بتكلف وهو يقول:

- نعم يا ولدى.

فقال شادي بلا اقتناع:

- حسنًا، اسمح لى أنا. .

وخرج شادي متوجهًا لغرفته وهو يفكر في شهندا، وأكثر ما كان يزيد من حيرته هو سلوك والده الغريب.

قبل أن يصل إلى غرفته قابل الأميرة قطر الندى ابنة عمه، كانت تصغر شادي بعامين، حاول شادي التهرب منها، ولكنها أوقفته قائلة:

- شادي.. كيف حالك؟ لم أجدك طوال النهار؟

فابتسم لها شادي وهو يقول:

- قضيت نهارى في الإسطبل.

وكاد يكمل طريقه إلا أنها أوقفته قائلة من جديد:

- ما الذى يحدث في الأسفل؟ هل صحيح أن هناك من تهجم على الحاكم؟

- لا ليس صحيحًا، والآن اعذرينى قطر الندى على الذهاب.

وتابع سيره قبل أن يترك لها الفرصه لتتحدث من جديد.

قضى شادي ما تبقى له من اليوم في غرفته حتى غط في النوم دون أن يشعر، وفي الصباح اليوم التالى استيقظ وقد قرر ألا ينزل للسوق اليوم، فهو لا يدرى ما حقيقة شهندا تلك، وما إذا كانت على علم بحقيقته في السوق، فإن عليه قبل كل شيء أن يكون مسئولاً وأن يتأكد منها قبل أن يخاطر بنزوله للسوق.

وقبل أن ينزل لتناول إفطاره، قرر المرور عليها في سجون الأسرى. .

وبينما شادي في طريقه إلى سجون القلعة ، لمح نوار خارجًا من قاعة الحكم وبرفقته شاب أطول منه ببضع بوصات به شبه كبير من نوار، بكتفيه العريضين وشعره الناعم وملامحه الحادة، وما إن رأى الشاب شادى حتى قال:

- لم أتوقع هذا أبدًا. ... تظل طوال تلك المدة دون أن تسأل عنى.

فارتسمت على وجه شادى ابتسامة عريضة وهو يقول:

- قاسم متى عدت؟

وتعانقا بشدة وبعدها تابع شادى:

- لقد اشتقت لك حقًا.

- لو كنت قد اشتقت لى حقًا، كنت زرتنى أو راسلتنى، ما هى أخبارك؟ هل لازلت تنزل إلى السوق؟

فأشار له شادى أن يخفض صوته وهو يقول:

- بلى.. هل رأيت الحاكم؟

- ليس بعد، لقد أخبرنا الحارس أنه لم ينزل من غرفته بعد، يبدو أن عاداتكم قد تغيرت كثيرًا.

أضاف قاسم جملته الأخيرة وهو يبتسم، بينما شرد شادى فلم يسمع ما أضافه نوار، فقد كان شاردًا في سلوك والده، فليس من عاداته

التأخر في النزول إلىقاعة الحكم، ولكن قاسم أخرحه من شروده قائلاً:

- إلى أين ذهبت؟

فنظر له شادي وابتسم بتكلف، بينما تابع قاسم بمرح:

- اسمع جهز نفسك، سنخرج اليوم للصيد.

وعندما أوشك شادي على الاعتراض، قاطعه قاسم متابعًا:

- لن أقبل أي أعذار.. طالما أن الحاكم لم ينزل بعد فيمكننا الذهاب.

فابتسم شادى وهو يقول:

- ما هى المدة التى ستقضيها معنا؟

- ليست بالكبيرة، سيكون على العودة إلى الحدود اليوم، أنا أريد الحاكم فيأمر ما.

فقال شادى لقاسم:

- حسنًا، سأصعد لأجهز نفسى، ومن ثم نذهب للصيد وتخبرنى ما سبب قدومك.

وهرول شادى عائدًا إلى غرفته، لقد كان سعيدًا لأنه سيمضى بعضًا من الوقت مع صديقه القديم، فلقد كان قاسم ابن الوزير نوار هو رفيق شادى في طفولته وصباه، حتى نقله الحاكم إلى الحدود الغربية ليكون قائد حرس الحدود هناك.

تذكر شهندا وهو يبدل ثيابه، فقرر أن يقضى بعض الوقت أولاً مع صديقه ومن ثم يمر عليها.

كان قاسم ينتظره في الإسطبل خلف القلعة ، وعندما دخل شادى قال قاسم وهو يربت على ظهر فرس أسود ذي شعر ناعم:

- انظر إلى فائز.. يبدو عليه الكبر.

فابتسم شادى وهو يقترب من جواده الأبيض ويقول:

- اتركه يستريح من عناء رحلة اليوم وخذ آخر.

وركب شادى جواده بقفزة واحدة، في حين قال قاسم:

- لا أستطيع الاستغناء عن فائز.

وصعد فوق جواده هو الآخر وهو يقول مخاطبًا الجواد:

- أليس كذلك يا فائز؟

فحمحم جواده وهز ذيله، فربت قاسم على جواده وهو يقول بحماسة:

- هيا بنا.

وانطلق كل من شادى وقاسم يتسابقان حتى وصلا إلى الغابة بالقرب من الإسطبل، والتى كانت تقع خلف القلعة الرئيسية، وقف كل منهما لثوانى، رفع شادى قوسه عاليًا ليصوب في اتجاه طير أبيض كبير، حين قال قاسم:

- هيا أخبرنى ما أخبار الحياة معك؟

فابتسم شادى وقال بعد أن أطلق سهمه ليصيب الطائر:

- أعلم ما الذى تود السؤال عنه؟

فرفع قاسم قوسه وهو يقول:

- أجيبنى إذًا.

وأطلق سهمه فلم يصب شيئًا، فاقترب منه شادى وهو يقول ضاحكًا:

- أرايت، لكى تصيب شيئًا عليك أن تصفي ذهنك.

فخفض قاسم قوسه وهو يقول:

- أنت موهوب في الرماية منذ كنا صغار. .. أما أنا فأمتلك مواهبى الخاصة أيضًا.

وضحك قاسم فشاركه شادى الضحك وبعدها تابع قاسم من جديد:

- ألن تتوقف عن نزولك للسوق هذا؟ أنت تفعل هذا منذ عامين الآن.

قال شادى وهو يراقب الأشجار حولهم:

- إنى أحب نزولى للسوق جدًا، أتعلم، لا أفضل شيئًا أكثر من وقوفي خلف دكانى ونادئى على بضائعى.

فضحك قاسم بشدة من كلام صديقه، ولكن شادى لم يشاركه الضحك تلك المرة، فلقد تذكر من جديد ما حدث أمس وشهندا التى بغموض الأحداث التى تحيط بها تحول بينه وبين نزوله السوق من جديد، فقال محاولاً تغير الموضوع:

- أخبرنى ما الذى تريده من الحاكم؟ أم ستعترف أنك أتيت لحضور حفل ختام المهرجان؟

فضحك قاسم وهو يعاود رفع قوسه وهو يقول:

- سأصيب هذا الطائر هناك. .. لن أنكر أنني صدمت لعدم تلقي دعوة لحضور حفل الختام، ولكن ما أتى بي بعض المشاكل عند الحدود مع قبائل الساسونية، الحاكم المنصور حاكم المدينة الغربية يريد أن يطردهم من أرضهم فلجئوا إلينا لنجدتهم، أنا شخصيًا لا أريد أن نتدخل في هذا، أنت تعلم نحن لسنا فيحاجة إلىمشاكل مع المدينة الغربية.

فبدا على شادى الاهتمام وهو يقول:

- تذكرت، لقد أخبرني نوار عن أمر عودتهم للإزعاج مرة أخرى، أتعلم لقد تعجبت من بقائه هادئا طوال تلك المدة.. إنه يسعى لإثاره المشاكل معنا.

تلك المرة استطاع قاسم إصابة الطائر، فقال بسعادة:

- لقد أصبته، أخبرتك إنى جيد في الرماية أيضًا، اسمع يا شادى سأشير على الحاكم بألا نتورط، ولكنك تعلم الحاكم نوار، قد يتدخل فقط من رغبته في حمايه تلك القبائل.

- أنا أتفق معك يا قاسم، أشعر أن المنصور يجهز لنا مكيدة ليوقعنا مع مدن الجنوب، لقد توصلنا بصعوبة للاتفاق معهم، إن الحاكم يحاول بكل قوته ألا يتم نقض تلك المعاهدة، والمنصور تحت حماية مدينة النجوم السبع، والحاكم وهران لن يتوانى عن الدفاع عنه.

من جديد رفع قسم قوسه مصوبًا تجاه طائر آخر وهو يقول:

- إنه بعيد أليس كذلك؟ لن أصيبه. .

فضحك شادى وهو يقول ممازحًا:

- إذا ركزت تفكيرك ستصيبه.

فلم يجبه بل حاول التركيز في التصويب تجاه الطائر، ولكنه مع هذا لم يصبه، فضحك شادى، فقال قاسم:

- لا تضحك.. لم تكن لتستطيع إصابته أنت أيضًا، أتعلم ما الذى يثار عند الحدود الغربية الآن؟ إن ما يفعله المنصور هو من رغبته في أن تدخل مدينته في نطاق المملكة القديمة، تخيل، لهذا يريد الاستيلاء على أراضى القبائل الساسونية، فهو يظن أن أراضيهم هى آخر الحدود القديمة للمملكة، ولكن كما تعلم أن أرضهم تبدأ مباشرةبعد حدود المملكة القديمة.

وقبل أن يجيبه شادى، اقترب منهم أحد الحرس وقال:

-مولاى ولى العهد الأمير شادى، أيها القائد قاسم، إن مولاى الحاكم نور الدين يريد مقابلتكما.

- حسنًا أخبره أننا قادمان.

وبعد أن انصرف الحارس، نظر شادى إلىقاسم وقال وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة:

- للأسف لن أستطيع أن أثبت لك أنى الأمهر.. عليك الاكتفاء بهذا القدر من الهزيمة.

وأدار جواده وسار قليلا فلحق به قاسم وهو يقول:

- أتقول أنك كنت لتهزمنى، أنت تتمنى.

وصلا إلى الإسطبل ووضعا جواديهما، ومن ثم سارا إلى قاعة الحكم حيث كان الحاكم نور الدين ينتظرهما، وما إن دخلا حتى حياه كل من قاسم وشادى، ومن ثم توجهه شادى إلى مقعده بجوار الحاكم، بينما قال الحاكم:

- مرحبًا بك أيها القائد، كيف هى أحوال الحدود الغربية؟

فال قاسم بصوت أكثر جدية مما كان عليه في الغابة:

- في أمان مولاى، إن الحاكم المنصور حاكم المدينة الغربية يهدد القبائل الساسونية، بطردهم من أراضيهم، ولقد استغاث بنا كبيرهم طلال.

وما إن انتهى قاسم حتى قال الحاكم:

- وما رأيك أنت يا قاسم؟

- مولاى من رأى ألا نتدخل في أمور الحاكم المنصور، إن الأرض التى تقع عليها القبائل الساسونية في الأصل لا تنتمى إلينا، ولا حتى إلى الحدود القديمة لمملكة البحر العظيم، فلا داعي لتدخلنا، والحاكم المنصور يظن العكس، لهذا يحاول إثارتنا ليدعو الجنوب للتدخل.

مع كلمات قاسم لمعت في رأس شادي فكرة غريبة، (يثير الجنوب ضدنا) ولية عهد كوكب الأبيض و الأسود، هل من المعقول أن يكون كل هذا مترابط؟ هل المنصور متواطئ مع مدينة كوكب الأبيض و الأسود؟ ولكنه أفاق من أفكاره على صوت الحاكم وهو يقول متسائلاً:

- والأمير شادي.. ما رأيك في هذا الموضوع.؟

فرفع شادى رأسه لينظر إلىوالده، وقال:

- بعد إذنك مولاي، هناك أمر هام على القيام به.

* * *

obeikan.com

وتزداد غموضًا

خرج شادي مسرعًا من عند الحاكم، إن كان الاستنتاج الذى وصل إليه صحيحًا فلابد أن يتأكد، توجهه إلى سجون الأسرى والتي كانت تقع أعلى السجون الأخرى في المبنى الملحق بالمبنى الرئيسى، وعندما وصل إلى الباب الخشبي الذى يقود إلى السجون صعد إلى الأعلى، لم يختلف المشهد كثيرًا عن الأمس سوى أنه أكثر إضاءة من السجون في الأسفل، فهناك عدة مشاعل تضيء المكان، كما أن هناك بعض النوافذ الضيقة بداخل الزنازين تدخل ضوء الشمس لتجعل الزنازين أقل قتامة من الزنازين الأخرى.

سأل شادى عن زنزانة شهندا، فقاده إلى ثانى زنزانة إلى اليسار، كانت أكبر قليلاً من زنزانة الأمس، بها مقعد خشبي صغير عوضًا عن الحجر، كما هناك فراش خشبي متماسك عليه وسادة وغطاء خفيف في زاوية الزنزانة، كانت تجلس في الداخل فوق المقعد ترفع رأسها قليلا لتتأمل السماء من النافذة الصغيرة التى تقع في سقف الزنزانة، توقف شادي على باب الزنزانة يراقبها لبضع دقائق ثم دخل إليها، تفاجأت

شهندا في أول الأمر ، ولكن عندما تبينت هويته، استدارت لتواجه الحائط، بينما أدار شادي رأسه في أرجاء الزنزانة، ثم قال وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة:

- هل نمت جيدًا. .. أرجو أن تكون تلك الزنزانة قد أعجبتك؟

فلم ترد عليه فتابع وهو يستدير لينظر خارج مدخل الزنزانة:

- لم أفهم ما هو الذى من شأن شعبان؟

مرة أخرى لم ترد عليه، فتابع من جديد بعد أن استدار ليواجه ظهرها:

- اسمعى أنا لست مقتنعًا حتى الآن بكونك الأميرة، فأنا لا أعرف كيف لأميرة مثلك أن تفكر في الثأر لموت والدتها التي هي ملكة قتلت في الحرب، فتحاول أن تثأر لها دون حتى جنود أو حرس، ولكن هناك أمر مؤكد هو أنك جاسوسة ما. .

ومنذ وصل شادي للزنزانة أخيرًا قال شيئًا استرعى انتباهها، فاستدارت بعنف ،وقالت بغضب شديد:

- أمي لم تمت في الحرب. ..

وكانت الدموع تتساقط من عينها وإن استطاعت أن تكون كلماتها قوية، فوجئ شادى بكلامها فقال:

- ماذا. .. أرجوك لا تخترعى القصص. .

أضاف الجزء الأخير بتملل واضح، فكررت هى كلامها والدموع تتساقط من عينيها:

- أمى لم تمت في الحرب، لم تمت فيها، لن تفهم أبدًا.

وجلست فوق الفراش فجلس شادى إلى جوارها ،وهو يقول:

- حسنًا، افهمينى، هل يمكنك أن توضحى الأمر لى أكثر؟

حاولت تجفيف دموعها التى انهمرت من بين جفونها بقوة شديدة،وهى تقول:

- لن تفهم ولن تصدقنى، لقد أسرت أمى في الحرب، لقد طالب والدك العزيز بهذا، لقد أراد أن يذلها، وبعد انتهاء الحرب رفض أى مفاوضات لاطلاق سراحها ثم طالب بتسليم مدينة كوكب الأبيض و الأسود مقابل تحريرها، اعتقد جواد أنه قادر على تحرير أمى دون تسليم المدينة ، ولكن والدك قتلها، قتلها وهى أسيرة عنده، قتلها وألقى بجثتها في الصحراء، هل فهمت؟ لم يقتلها وحسب، بل أراد أن يذلها، ولو لم يخف على مكانته أمام شعبه وفي الجزيرةكلها لنشر لهذا، ولكنه تكتم على الأمر ، كان يجب إدانته، ولكنه تحول من المجرم إلى البطل، من القاتل إلى موحد الشمال.

توقفت شهندا عن الكلام وقد كانت دموعها تسابق كلامها، ولم تستطع أن تتمالك نفسها، فوضعت رأسها بين يديها، بينما نظر إليها شادى بإشفاق شديد، شعر أنه يصدقها، فمد يديه ليربت على ظهرها، وبعد أن اقتربت يداه منها وقبل أن يمسها سحب يديه بسرعة، وقام واقفًا وهو يقول:

- اسمعى أيتها الأميرة، تأكدى من أننى سأبذل قصارى جهدى للتأكد من صحه ما قلته، وسأرى ما يمكننى فعله، وعلى كلٍّ أعتقد أن كلامك هذا قد يجعلنى قادرا على تأجيل محاكمتك..

واقترب من الباب وتابع بصوت منخفض:

- ومازلت أصر على إجابة سؤالىالأول..

وخرج شادى من الزنزانة تاركًا شهندا لا تزال تبكى، بينما تحرك هو متجهها إلى قاعة الحكم، عليه أن يخبر والده بما سمعه منها.

فما يحدث كان غريبًا جدًا، بعد تسعة عشر عامًا من الهدوء، تظهر فتاة تدعى أنها أميرة كوكب الأبيض و الأسود، أهم مدن الجنوب، تحاول الثأر لوالدتها من حاكم مدينة الأحلام العدو الدائم للجنوب، تأتى بمفردها وليس معها جنود ولا حرس، والكلام الذى قالته، كلامها في كفة، وتاريخ مدينة الأحلام كلها في كفة، بالإضافة إلى الحاكم المنصور، تحليل القاسم في رغبته في لفت أنظار الجنوب إلى مدينة الأحلام من جديد، ولكن مع كل هذا كان يشعر برغبة عارمة في تصديقها.

عاد شادى إلى القاعة ، كان قاسم لايزال يتحدث مع الحاكم، الذى قال موجهها كلامه إلى قاسم بالرغم من نظرته القلقة التى كان يراقب بها شادى:

- حسنًا أيها القائد قاسم كما ترى. .. حاول مقابلة زعيم القبيلة وتحدث معه، وفي النهاية أمان الحدود مسئوليتك.

فانحنى قاسم وهو يقول:

- كما ترى مولاى، اسمح لى.

وانصرف بعد أن ألقى نظرة متسائلة تجاه شادى.

جلس شادى بعد أن حيا والده، فقال والده بتردد ،وقد بدى واضحًا أنه يحاول فتح حديث مع شادى:

- لمَ لمْ تنزل للسوق اليوم؟

ولكن شادى لم يجبه، فقد كان لايزال مشغولا بما سمعه من شهندا، لهذا قال:

- والدى لقد كنت عند شهندا، ووقد توصلت لأمر أود مشاورتك فيه.

فبدا على الحاكم التوتر، وهو يقول:

- ماذا هناك؟

فأخذ شادى نفسًا عميقًا قبل أن يقول:

- حسنًا في البداية، هل أنت مصدق لكونها الأميرة فعلاً؟ أنا.. لا أعلم.. أصدقها، فتصرفاتها وكلامها. .. ولكن ما حكته لى الآن غريب جدًا، إنها تقول إن والدتها لم تقتل في الحرب، وأنها قتلت فيالأسر عندما رفض جواد – وزيرها في هذا الوقت – أن يسلمك المدينة.

وعندما لمح شادى الانزعاج على وجه الحاكم نور قرر أن يكتفي بهذا وأن يؤجل إخباره بأمر استنتاجاته، عم الصمت للحظات بعدها تكلم الحاكم ،وكأنه قد حسم أمره للتو قائلاً:

- اسمع يا ولدى، أنا لا أعلم إن كانت الأميرة أم لا، ولكن ما أعرفه أنه هناك أشياء عن الماضى أنت لا تعرفها بعد.

ظهرت الدهشة على وجه شادى، بينما تنهد الحاكم وتابع:

- عليك في البداية أن تعدنى ألا تقاطع حديثى.. وأن تنتظر حتى أنهى كلامى.

شعر شادى بالقلق، ولكنه حافظ على ملامح وجهه ،وهو يومئ لوالده بالإيجاب، والذى بدوره ظل ينظر إليه لدقائق

* * *

obeikan.com

(5)

أسرار الماضى

بدأ الحاكم كلامه دون أن ينظر إلى شادى:

- عندما ولدت أنا، كان والدى القاسم بالعدل يتمنى إنجاب الغلام خاصة بعد موت ابنه الأكبر، لتنطبق النبوءة التى قالها بنو المميارق عليه، أنت تعرف أهمية نبوءات المميارق، وكيف يصدقها كل من في الجزيرة، وكيف يعتقدون أن تلك القبيلة لها قوة في مجال التنبوء، فبعد مرور سبعة وعشرين عامًا من الصراع بين الحاكم القاسم بالعدل وأخوه غير الشقيق عماد الدين، وقبل أن تلدنى أمى بأسبوع أتى أحد بنى الميمارق إلى والدى وفي نفس الوقت إلى الحاكم عماد الدين، وتلى نبوءته التي غيرت حياتى:

سيتوحد غير الشقيقان بعد شجار

ويولد في بيتهما من يمحو الدمار

وتتوحد البلاد على يديه ولا تنهار

ويحارب العدو القديم ويكون له الانتصار

ويعيد الملك القديم إلى الازدهار

هل تتخيل؟ فعلا بمولدى توحد والدى وجدك الحاكم عماد الدين، لقد استمرت الحرب بينهما ما يقارب الثلاثين عامًا، أنا أوقفتها، فقط بمولدى أوقفتها، خاف الجميع من صحة النبوءة فقد استطعت أن أوحد الشمال بزواجى من والدتك، ومحوت الدمار الذى كادت أن يتسبب به جنود مدينة النجوم السبع وكوكب الأبيض و الأسود بعد أن كونا حلف الجنوب، لم يتبق إلا العدو القديم، حلف الجنوب بقيادة يولاندا، لم أستطع أن أواجهها في الحرب، وعرفت أنها أسرت، عرضت على جواد أن يسلمنى مدينة كوكب الأبيض و الأسود مقابل تحريرها، ولكنه لم يوافق، وكنت واثق من أنه لن يفعل، كنت أرغب في الانتقام منها، هناك أمور لن أستطيع إخبارك بها الآن، كما أنى كنت أسعى لتحقيق النبوءة، أن أملك الشمال والوسط والجنوب، أن أعيد مملكة البحر العظيم مرة أخرى.

سكت الحاكم ليلتقط أنفاسه، فقط كان يتكلم بحماسة شديدة، بينما وقف شادى مذهولا مما قاله له والده، والذى لم يترك فرصة له ليتكلم بل تابع:

- لا أريدك أن تفهمنى بشكل خاطئ يا بنى، أنا أعلم أننى أخطأت حينها، ولكن. .. شادى ستعرف كل شئ في وقته، هناك أمور لن أتمكن من

قولها لك الآن، ولكنى سأفكر في شئ يمكنه إصلاح هذا، أعدك. .. ولكن عدنى أن تتفهم – أن تحاول –لما فعلت هذا.

لم يجبه شادى بل استأذن منه وانصرف، خرج من عنده وقد ازداد حيرة، فهو لا يدرى ما الذى فعله، فبغض النظر عما إذا كانت شهندا هى الأميرة أم لا، مذنبة أم لا، فوالده أخطأ خطأ جسيما، خطأ أخفاه عن الجميع، خطأ تولد عنه أعظم حاكم للشمال، ترتب عليه أن يكون بطلاً.

سار في اتجاه غرفته محاولاً ألا يراه قاسم، فلم يكن مزاجه يسمح بالحديث، وصل إلى غرفته دخل إليها وعاد من جديد للتفكير.

ظل شادى في غرفته طوال اليوم، لم يقدر على التوجه لزيارة شهندا، بالرغم من رغبته العارمة لهذا، كما أنه لم يستطع التواجد مع قاسم، فلقد كان يشعر كمن يحمل حملاً ثقيلاً، حتى أنه لم يتواجد مع والده في حفل ختام المهرجان.

كان شادى يقف خلف دكانه في السوق، فلقد سأم البقاء في القلعة ، فهو لم يستطع أن يواجه والده بعدما علمه، كما أنه لم يستطع زيارة شهندا، لم يكن ينادى على بضائعه بحماسته المعتادة، فلاحظ زهران هذا، فقال له:

- شعبان ماذا بك اليوم؟ هل أنت متعب؟

فنظر له شادى وقد حاول أن يخرج شهندا من تفكيره وقال:

- أشعر أننى مجهد قليلاً، كيف كانت رحلتك أمس؟

فابتسم زهران وهو يقول بحماس:

- لا تتخيل كم كان الأمر ممتعًا، أخبرتك أنك كنت ستقضى يومًا لن تنساه، لقد قابلت سامى الخباز، ولقد سأل عنك.

ثم قال كمن تذكر شيئًا هامًا:

- أخبرنى أنت أين كنت أمس؟ ما هو الأمر الهام الذى جعلك ترفض مرافقتى؟

فقام شادى واقفًا ليعيد لف أحد أتواب القماش وهو يقول:

- لم أذهب إلى أى مكان، كنت مجهدا وقضيت اليوم في المنزل.

فضحك زهران وقد بدا الشك في عينيه ،وهو يقول:

- حسنًا، سأبدو كمن يصدقك، يوم ختام مهرجان العودة وأنت تقضيه في المنزل. .

فضحك شادى وقال:

- كما تريد.

كان السوق أقل ازدحامًا من الأيام السابقة، وقد بدأ يعود لطبيعته الهادئة بعد يومين من الازدحام الدائم.

كان شادى لايزال يفكر فيما أخبره به والده، وما قالته شهندا، ولم يكن يعرف كيف يثبت أنها الأميرة فعلا، فقد كان إرسال وفد لمدينة كوكب الأبيض و الأسود، له عواقبه في كلتا الحالتين، كما أنه لم يستطع أن يأمر أحد الوصيفات لتتفقد الختم على كتفيها دون موافقة

والده، فقد كانت من عادات كوكب الأبيض و الأسود ختم ولى العهد بالخاتم الملكى، كما كانت الحال فيمدينة الأحلام ومعظم مدن الجزيرة.

مرة أخرى قاطع زهران أفكار شادى وهو يقول بصوته الغليظ العالى:

- شعبان.. لقد قررنا أن يكون اجتماع المجلس في الغد، ستكون معنا أليس كذلك؟

تذكر شادى أمر الحرس واجتماع مجلس التجار، فقال محاولاً تأجيل هذا الاجتماع:

- ألا يمكننا تأجيل هذا الاجتماع، فأنا لا يمكننى الحضور في الغد، وكما تعرف يا زهران تلك الاجتماعات لا تنتهى لشئ في الغالب.

- إنه قرار بالإجماع من جميع التجار، وأنت تعرف أنه لا يمكننى مطالبتهم بهذا.

وقبل أن يكمل زهران كلامه، دخل زهران الصغير دكان جده وهو يقول بقلق:

- جدى.. إن أبى مريض جدًا، ولا أعرف ما الذى علي فعله؟

فقام زهران مسرعًا وقد تملكه الخوف، لم يكن شادى سمع ما قاله الصغير، ولكنه ذعر لرد فعل زهران.

كان زهران قد خرج من دكانه وأمسك بكتف الصغير، فخرج شادى من دكانه واقترب منهما وهو يقول بقلق:

- ماذا هناك؟

فنظر له زهران وقد بدى الخوف والقلق على وجهه وقال:

- أرجوك اغلق أنت دكانى، لقد اشتد المرض على سالم.

وسار مبتعدًا مع زهران الصغير، في حين بدأ شادى في إغلاق دكانه ودكان صديقه ليلحق بهم.

كان المنزل الذى يقيم به زهران منزلا صغيرا نوعًا ما ولكنه مريح جدًا، فهو عبارة عن ثلاث غرف وبهو كبير، كان أثاثها الأزرق والأبيض مريح للعين والنفس، وكان دائمًا ما يشعر شادى بالاطمئنان.

كانت زوجة زهران متوفية منذ زمن، لا يعرف شادى ما هو شكلها ولا متى توفيت، فمنذ نزل إلى السوق وتعرف إلى زهران وهو يعرفه رجلا كبير السن وحيدا، إلى أن أتى ابنه الذى كان يعمل في المدينة الغربية للعيش مع أبيه في الأحلام وأحضر معه ابنه زهران الصغير وزوجته، وبدأت حينها حياة زهران تتحسن وقد شعر ببعض الألفه في منزله.

إلى أن مرض سالم بهذا المرض الذى يستنزف حياته ببطء شديد، فجعلت حالته أتعس من حياة الوحدة، ولم يتأخر زهران عليه بالحكماء والأطباء عندما لم تجد وصفاته في علاجه، واستعصى مرضه عليهم أيضًا، وما كان منهم إلا إعطائه بعض الوصفات المسكنة التى تخفف من آلامه في الليل ليستطيع النوم.

كان شادى يقف في الغرفة الأكبرفي المنزل، والتى كان يسكنها سالم وعائلته الصغيرة، كانت تحتوى أثاثًا بسيطًا، طاولة زينة صغيرة ومقعد خشبى وخزانة ملابس والفراش الذى استلقى عليه سالم.

كان سالم بشعره الأسود الأشعث، وعينيه الحمراوتين وجسمه الهزيل يوحى أنه أكبر من والده ممتلئ الجسم صافي الوجهه عمرًا، فقد زادت الهالات السوداء أسفل جفنه، وأصبح عويله من الألم أكثر مما قبل حين حاول الحكيم أن يفحص صدره، فقد أصبح يسعل دمًا مما أثار رعب زوجته وابنه لهذا استدعوا زهران.

بعد انتهاء معاينة الحكيم له، خرج مع زهران إلى البهو، وهو يقول بصوت قلق:

- عم زهران.. لا أخفيك أن حالة سالم ازدادت في التدهور، وسيكون الحل الوحيد أن تحصل على تصريح للسفر إلى كوكب الأبيض و الأسود، أو في أحسن تقدير إلى الزمرد، أنت تعلم أن تلك المدن فيها نوع جديد من العلوم ولديهم ما قد يساعدنا على شفاء سالم، لابد أنك على اطلاع بتلك الأمور وعلى علم بها أفضل منى.

كان شادى يقف خلف الحكيم، وعندما أوشك على فتح فمه للتكلم، قاطعه زهران وهو يقول موجها نظرة تحذيرية إلى شادي:

- سنواظب إذا على إعطاءه تلك الوصفة من جديد، سأضيف إليها بعض من قشور الرمان الجافة؟

فأومأ له الحكيم وهو يقول:

- ستكون كافية لجعله يتحمل الألم، ولكن إذا تكرر أمر السعال الدامي، عليك أن تزيد الجرعة.

وسار الحكيم في اتجاه الباب، بينما عاد شادى إلى غرفة سالم والذى كان يسعل بشدة وقد انحنى إلى الأمام قليلا، ووضع يديه فوق فمه

والأخرى يعتصر بها صدره، هرول شادى في اتجاهه، ووقف إلى جواره وقد وضع إحدى يديه على كتف سالم، وما هي إلا ثواني حتى اعتدل سالم، ونظر إلى شادى وعلى ثغره شبح ابتسامة حزينة،وقال بصوت متهدج شديد التعب:

- أنا بخير.

فربت شادى على كتفه بحنان ، حين دخل زهران وقد هرب اللون من وجنتيه الممتلئتين ،وقال هامسًا لشادى بقلق:

- هل كان يسعل دمًا من جديد؟

فنظر شادى إليه وقد بدا الحزن على وجهه، وقال بصوت هامس:

- من الأفضل أن نتركه يرتاح.

وخرج كلا من شادى وزهران تاركين سالم ليرتاح، جلسا معا.

جلسا في بهو الدار، وقد أحضرت زوجة سالم الشاي لهما، في حين كان شادي يفكر كيف يفتح الكلام مع زهران، فابنه يموت وهو يرفض أن يطلب من الحاكم مساعدته، وأخيرًا استطاع زهران قراءة تعبير وجهه شادى فقال:

- شعبان، سيكون سالم بخير، فلا تعيد على كلام إذن السفر هذا.

- زهران عليك ألا تكون شديد العند هكذا، لا يوجد ما يعيب في أن تذهب إلىالحاكم بمشكلتك.

فنظر زهران نظرة مطولة إلى باب الغرفة التى يرقد فيها ابنه، ومن ثم نظر إلىشادى وهو يقول ببطء:

- شعبان.. لن أستطيع الذهاب إلى الحاكم، ولن أستطيع أن أطلب هذا التصريح منه، وسالم سيتحسن، ولايوجد ما يميز حكماء كوكب الأبيض و الأسود عنا.

كان زهران يتكلم ببطء موضحًا كل كلمة يقولها بثقة شديدة، وعرف شادى من نبرات صوته الغاضبة أنها نهاية الحوار في هذا الموضوع، فقام واقفًا وهو يقول ناظرًا إلى غرفة سالم:

- أتمنى حقًا أن يتحسن سالم.

ومن ثم نظر إلى زهران من جديد وأضاف بعد أن أخرج مجموعة من المفاتيح ناولها لزهران:

- تفضل مفاتيح دكانك.. أراك في الغد.

فابتسم له زهران ابتسامة ضعيفة، وقبل أن يخرج شادى دخل إلى البهو ابن سالم، الذى كان يشبه والده كثيرًا، ذات الشعر الأسود والبشرة البرونزية التى كانت تميز سالم قبل مرضه، ابتسم له شادى ومن ثم خرج من منزل زهران عائدًا إلى القلعة.

* * *

obeikan.com

(6)

بدر البدور

كان قاسم لايزال في العاصمه، ومن المقرر أن يسافر غدًا مع بزوغ الفجر، وما إن وصل شادى عند القلعة حتى وجده في انتظاره عند باب المبنى الرئيسى للقلعة ، كان شادى يشعر بالحزن في حال زهران وابنه، لهذا لم يكن يرد رؤية قاسم، فلم يكن قادرًا على مجارته في مزاحه، وما إن اقترب منه شادى حتى ابتسم ابتسامة متكلفة، فقال قاسم:

- أخيرًا عدت، أنت حقًا متزمت، لم يكن من المهم أن تنزل إلى السوق اليوم، لم تكن الحروب ستشن إن لم تكن موجودًا

فابتسم شادي– كان قاسم كان من الأشخاص القليلين القادرين على تحسين مزاج شادى -وقال له:

- وما أدراك أنت؟ كما أنى بالفعل لم أنزل إلى السوق أمس من أجلك ألا تذكر.

فافتعل قاسم التفكير، ومن ثم قال ضاحكًا:

- هل ستكون قادرا على الخروج للصيد؟ أم أنك متعب؟

ففكر شادي لثوانٍ، كان حقًا في الحاجة لإراحة أعصابه من التفكير، ولم يكن هنالك أفضل من الصيد ليسترخى، فقد كان الصيد هواية شادي الأولى، وقد كان الشئ الوحيد الذى يخرجه من ضغوطه، ويجعله قادرًا على التفكير بسهولة وحكمة، كانا قد وصلا إلى باب غرفة شادي، فنظر إلى قاسم وهو يقول:

- يمكننى الرفض إذا كنت تريد العودة إلى الحدود دون هزيمة أخرى.

فابتسم قاسم وهو يقول:

- سانتظرك في الأسفل.

دخل شادي إلى غرفة تبديل الملابس، كان لايزال واقفًا في غرفة تبديل الملابس حين سمع صوت طرقات على الباب الرئيسى للغرفة، كان متأكدًا أنه أحد الحرس قد أرسله قاسم ليحثه على الإسراع، فقال بصوت عالٍ ليسمعه الطارق:

- تفضل بالدخول.

وأنهى تبديل ثيابه وعاد للغرفة الرئيسية، وهو يتابع بذات الصوت:

- أخبر القائد أننى على وشك النزول.

ولكنه فوجئ عندما لم يسمع صوت الحارس، بل سمع صوتًا آخر، صوتًا لم يكن يتوقع سماعه، صوتًا ناعمًا قويًا، الصوت الوحيد المستحيل على شادي عدم تميزه، كان صوت والدته الحاكمة بدر البدور، والتى كانت تقول:

- شادي، هل باستطاعتي الدخول؟

اتجه شادى بنظرة إلى حيث كانت تقف والدته، كان شادي شديد الشبه بالحاكمة في شعره البنى الناعم والبشرة البيضاء، وقف شادي أمامها لثواني مدهوشًا، فقد كانت تلك المرة الأولى التى تدخل فيها الحاكمة إلى غرفته منذ شب شادي، وأخيرًا أفاق من دهشته قائلاً:

- بالطبع، تفضلى أمى.

دخلت الحاكمة إلى غرفة شادى، والتى كانت شأنها شأن غرف القلعة تتميز بسقفها العالى، وعلى يسار المدخل كان يوجد فراش عالى مذهب من خشب الزان، وإلى يساره مقعدان من ذات الخشب وبذات النقش الملكى الفاخر وبينها طاولة مستديرة بذات الشكل، وإلى يمين الفراش في نهاية الغرفة كانت هناك نافذة عالية تطل على حديقة القلعة الأمامية، وقد غطتها من الجوانب ستائر حمراء قانية، وتحتها مقعد وثير، وإلى يمين المدخل كان هناك باب يؤدى إلى غرف تبديل الثياب.

جلست الحاكمة إلى أحد المقعدين ونظرت إلى شادى تدعوه للجلوس هو الآخر، كان شادى مترددًا ومتحيرًا جدًا من سبب صعود الحاكمة إلى غرفته، تقدم منها ببطء وجلس إلى المقعد الآخر، ونظر إليها منتظرًا منها البدءفي الحديث، نظرت الحاكمة جيدًا في عينى شادي البنية ومن ثم قالت بهدوء:

- لقد أخبرنى والدك عما دار بينكما من حديث.

ففتح شادي فمه ليقاطع والدته، ولكنها أشارت له بالصمت وهى تتتابع:

- اتركنى أكمل حديثى من فضلك.

فأومأ لها شادي باستسلام، في حين تابعت الحاكمة براحةأكثر:

- شادي. .. هناك بعض الأمور التى تكون معرفتها في وقتها أفضل، ولن أستطيع أن أشرح لك كل الظروف التى وضع فيها والدك حينها، ولكن يولاندا كانت طاغية، كانت السبب في تدمير كل حلفاء الجنوب، حاولت قتلى بأكثر الطرق مكرًا، وشنت علينا حربًا شعواء،ونحن في أضعف حالتنا و. ..

وقطعت الحاكمة كلامها، ونظرت في جهة النافذة، في حين لاحظ شادي أنها في انتظاره ليتحدث، فقال بهدوء مماثل، محاولاً إخفاء كل مشاعره، لم ينظر إليها وهو يقول:

- أمى، لن أحاسب والدى على شئ حدث قبل تسعة عشر عامًا، كل ما أفكر فيه هو شهندا، وقصة ولية العهد، هل هى جاسوسة أم لا؟ هل هى ولية العهد فعلا؟ هل هى متهم هنا أم مجنى عليه؟ كلها أمور تشغل بالى.

فأعادت الحاكمة نظرها إليه وقد بدت أكثر تحكمًا في نفسها:

- انزل إلى والدك، هو من يفقه في تلك الأمور أكثر منى.

فلم ينظر إليها شادي ومرت مدة من الصمت قطعها شادي قائلاً:

- بعدما أعود من رحلة الصيد مع قاسم.

فقامت الحاكمة واقفة واتجهت إلى الباب ولكن قبل أن تخرج من الغرفة استدارت لتقول:

- لا تتقرب كثيرًا من الأميرة قطر الندى.

وقبل أن يتكلم شادي خرجت من الغرفة.

كانت الحاكمة بدر البدور تجلس إلى جوار زوجها، وكل ثانية تنظر إليه ومن ثم تعيد نظرها أمامها من جديد، وقد بدى عليها القلق والتوتر، وأخيرًا حسمت أمرها ونظرت إلى الحاكم ،وقالت محاولة بجهد أن يكون صوتها هادئًا:

- أخبرنى مرة أخرى ما الذى أخبرت شادي به؟

وعندما نظر إليها الحاكم وقد بدا عليه التملل والغضب، أضافت مسرعة:

- أنا آسفة.. ولكن. .

فأخذ الحاكم نفسًا عميقًا، ومن ثم قال:

- لم أخبره بشئ يا بدر، لا تقلقى.

فتنهدت الحاكمة وقالت وهى تمسح بعض الدموع التى غادرت جفنيها دون أن تشعر:

- نور أنت تعلم، لقد أقسمنا على ألا يعلم أحد بهذا الأمر مطلقًا.

فربت الحاكم على يديها وهو يقول مطمئنًا ونظره معلقًا على باب القاعة:

- أعلم.

كان الحارس قد أخبر الحاكم أن الأمير شادي ولي العهد والقائد قاسم قد عادا من رحلة الصيد، وأن الأمير شادى يبدل ثيابه وفي طريقه إلى قاعة الحاكم.

دخل شادى قاعة الحكم، كان طوال رحلة الصيد وهو يفكر فيما سيقوله لوالده، هو حقًا لا يريد أن يعاتب والده على ما حدث، فهو لا يعرف الظروف الكاملة حينها، فحتى وإن قتل والدة المدعوة يولاندا ،وهى في الأسر وتخلص من جثتها في الصحراء، فهو لايزال يثق في قرارات والده وحكمته.

ولكن الشئ الوحيد الذى كان يؤرقه هو شهندا، وحقيقة تورطها في الأمر، فكان يشعر أحيانًا أنه يصدقها وأنها فعلا الأميرة، أحيانًا أخرى يكون واثقًا أنها ليست أكثر من جاسوسة.

تقدم شادي من والده ببطئ وحياهم ومن ثم قال:

- والدي أنا لا أملك صلاحية التعديل على قراراتك أو معاتبتك، فأنا أثق في حكمك وسداد رأيك، فأنا لا أعرف ما حقيقة ما حدث منذ تسعة عشر عامًا، وكل ما يشغل بالي هو أمر شهندا؟ ما الذى تنوى فعله معها؟

مرت ثوانٍ من الصمت كان خلالها الحاكم نور يتفحص ابنه وقد بدا عليه التوتر، في حين لم يقو شادي على رفع عينيه في وجه أبيه، أخيرًا قال الحاكم بصوت هادئ وعميق:

- يا شادي إنه أمر محير حقًا، فأنا لا أستطيع التوصل للطريقة المثلى التى أستطيع بها التأكد من هويتها.

رفع شادي وجهه ليواجه والده وهو يقول:

- إن لم تكن الأميرة حقًا فهى شخص على معرفة كبيرة بأمورنا، وعلى علم بما حدث منذ تسعة عشر عامًا، ويعرف أنى. ..

وقطع شادي كلامه قبل أن يكمل، فلم يكن يريد أن يعرف والده بأمر توقف شهندا أمام دكانه في السوق، فخفض وجهه من جديد، في حين أخرجه من هذا دخول الأمير جاسم، ولأول مرة يكون شادي ممتنًا لدخول عمه الأمير جاسم لقاعة الحكم، حيا الحاكم ولكنه لم يتكلم، في حين نظر الحاكم إلى شادي الذى تابع محاولاً أن يخفي زلة لسانه:

- هل هناك أحد يعرف بما حدث منذ تسعة عشر عامًا ويمكنه أن يسرب تلك المعلومات؟

فبدا على الحاكم التفكير العميق، ومن ثم قال وهو لايزال شاردًا يفكر:

- حقيقة لا أذكر، لقد كانت الحرب حينها تطول مدنًا كثيرة، حتى أنها كانت قد امتدت لما بعد حدود المملكة القديمة، وقد تورطت فيها المدينة الغربية وقبائل الحدادين. .

وعم الصمت أثر كلمات الحاكم، وأخذ شادي يفكر في كلام والده، حين تكلم الأمير جاسم قائلا:

- مولاى الحاكم نور، هل يحق لى إبداء الرأى في هذا؟

فقال الحاكم:

- بالطبع، تكلم يا جاسم.

نظر جاسم مطولا إلشادي ومن ثم قال:

- أرى أنها جاسوسة أرسلها أحدهم إلى هنا، من الأفضل والأكثر أمانًا لك مولاى وللمدينة هو البدءفي محاكمتها على الفور وفق قانون المدينة.

بدا على الحاكم الحيرة، ونظر إلى شادي في انتظار سماع رأيه، ولكن شادي عند هذا الحد شعر أنه اكتفى، وأنه يريد الانفراد بنفسه ليستطيع التفكير، فاستأذن من والده وخرج من قاعة الحاكم، وقبل أن يتجه إلى السلم الذى يقود إلى غرفته في الطابق الثانى من القلعة ، وجد نفسه يسير في اتجاه المبنى الملحق لسجون القلعة ، وصل إلى الباب الخشبي في نهاية الممر الشرقي ، من ثم اتجه إلى أعلى حيث سجون الأسرى.

وصل شادي إلى زنزانة شهندا، كانت تجلس على الأرض، وقد ضمت ساقيها إلى صدرها وأراحت رأسها فوق ركبيتها، وقف شادي لثواني ليتأكد من كونها مستيقظة، كان ضوء القمر يتخلل الظلام من النافذة في سقف الزنزانة، لينعكس على شعر شهندا الأسود اللامع، وأخيرًا أمر شادي الحارس بفتح الزنزانة، ومن صوت الباب الحديدي رفعت شهندا رأسها وقد بدى واضحًا حتى في ظلام الزنزانة أثر بكائها المتواصل، نظرت إليه طويلاً ومن ثم مسحت آثار الدموع بهدوء ونظرت للجهة الأخرى دون أن تعتدل، فاتجه شادي إليها وجلس إلى المقعد الخشبي وقبل أن يتكلم سبقته هي دون أن تنظر إليه قائلة:

- هل تأكدت مما قلته لك؟

ارتبك شادي، ولم يعرف بما يجيبها، ولكنه وجد نفسه يقول:

- شهندا، قبل أن أجيبك هل بإمكانك أن تريحيني؟ أو أن أعرف لما طلبت منى العون دونًا عن كل من كان في السوق. ..

ومن ثم أضاف بصوت خافت:

- هل كنت تعرفين حقيقتي؟

لم يرفع شادي رأسه، لقد كان يشعر بعينها تحدق به، ولكنه لم يقو على النظر إليها، بالرغم من أنه كان يشعر بالرغبة في النظر من جديد داخل عينيها، إلا أنه قاوم رغبته وظل يحدق في قدميه، وبعد دقائق شعر بها تقف، فنظر إليها، فوجدها قد قامت واقفة ترفع رأسها لتنظر من النافذة في سقف الزنزانة، فقام خلفها، بينما قالت هى:

- أيها الأمير هل يكفيك أن أخبرك أنى لم أكن أعرف حقيقتك.

كان صوتها أقل جفاءًا مما سبق، وإن كان لايزال يحتفظ بقوته، وكبريائه، فاستدار شادي في اتجاه باب الزنزانة وهو يقول:

- وأنت ألا يكفيك أن أخبرك أن ما أخبرتنى به حقيقيًا.

وعم عليهم صمت طويل، لم يعرف شادي بما سيجيبها، فنظر في اتجاهها، فلم تكن تنظر إليه، وأخذ يحدق في شعرها الأسود المنسدل في نعومة على ظهرها، كان يلمع في ضوء القمر الخافت الآتى من النافذة في الأعلى، وفجأة استدارت شهندا، ليجد شادي نفسه يحدق في عينيها العقيقيتين الصافيتين، كانت عيناها كما رآها في السوق حزينة متألمة ولكن قوية، وكما حدث من قبل وجد نفسه يسبح في

عمق عينيها، شعر أنه يود أن يقول شيئًا ليخفف الحزن منها، ولكنه لم يجد ما يقوله، فأحنى رأسه وأخذ ينظر بين قدميه ،ومرت ثوانى قبل أن يقوم واقفًا ويغادر الزنزانة دون أن يقول شيئًا آخر.

سار بخطوات سريعة إلى أن وصل إلى غرفته، لم يكن شادى يملك أى طريقة ليثبت بها أنها لم تكن تعرف حقيقته، فإن كانت تكذب فلا شئ سيؤكد هذا، ولكنه كان يصدقها، لا يعرف كيف يفسر هذا ولكنه كان يصدقها وكان هذا يكفيه.

بدل شادي ملابسه، ثم استلقى فوق فراشه يفكر، يفكر في كل ما حدث اليوم؟ ، لقد كان يومًا طويلا، تذكر صديقه زهران ومرض ابنه الشديد، واجتماع مجلس التجار في الغد، كلام والدته وطلبها منه ألا يتقرب من قطر الندى، ولكنه وجد صعوبةفي التركيز في كل تلك الأفكار، فقد كانت عيناها الواسعة بلون العقيق البنى تسبح فوق أفكاره، حاول الهرب منهما ولكن دون جدوى.

* * *

(7)

إقليم السعدين..

كان الكل يتحدث في ذات الوقت، وقد ارتفع صوتهم بالسباب والدعاء على الحرس الذين يجيبون السوق ويسرقون قوتهم، كان شادي يجلس في ركن بعيدًا عن النقاش الحاد الدائر بينهم ،كان يعرف أن هذا ما سيحصلون عليه من اجتماع التجار اليوم، لم يكن يود أن يحضر ولكن زهران أصرعلى أهمية حضورهم، وفي الحقيقة كان جزء من شادي يود الحضور كعقاب لنفسه على عدم اهتماه بالأمر كما يجب، كان زهران يجلس إلى جوار شادي وهو يبدو شارد الذهن أيضًا، وكان شادي متأكدًا أن ما يشغل باله هو ابنه سالم، وإلى جوارهم كان هناك تاجر شاب يجلس في هدوء، وقد كانت تلك هي المرةالأولى له التي يحضر فيها اجتماع لمجلس التجار، فقد كان حضوره نيابة عن والده، كان

شابا لم يتجاوز السادسة عشر من عمره بعد، ولكن جسده العريض وقامته الطويلة جعلته يبدو أكبر سنًا.

أخيرًا قال شادي بصوت هامس لزهران:

- زهران.. أعتقد أن عليك التدخل، علينا أن ننهى هذا الاجتماع. .

فهمس زهران لشادي دون أن ينظر إليه:

- وما عساي أقول؟ ألا ترى منذ أجتمعنا وهم يناقشون من منا عليه تقديم الشكوى للقلعة.

فقال زهران وهو لايزال هامسًا:

- أقترح أن تقدمها أنت، وفي ذات الوقت تقدم طلب السفر.

فحدجه زهران بنظرة قوية، وقبل أن، يتكلم، تكلم الشاب ذا الستة عشر ربيعًا:

- هل يسمح لي مجلس التجار بقول كلمة.

فنظر له التجار، كان هذا الشاب أحدثهم انضمامًا بعد وفاة والده، وفي مثل تلك المجالس لا يكون للأحداث كلام، ولكنهم إثر كلماته القوية، صمتوا ونظروا في اتجاهه حين قال أكبرهم الشيخ حسان:

- تفضل يا بنى، لقد كان لوالدك رحمه الله فضلاً عظيمًا، فمن حقه علينا أن نستمع إلى ابنه.

فقال الشاب:

- يقدم الشكوى أكبرنا سنًا وأحقنا بمثل هذا الشرف، أعنى أن الشيخ حسان هو الأحق بهذا، كما أن هناك أمورا أخرى لابد لنا من الاهتمام بها عوضًا عن إضاعة الوقت في النقاش عمن يذهب للقلعة.

كان شادي واثقًا من أنهم سيتابعون نقاشهم الأجوف، ولن يعطوا لحديث الشاب أى أهمية، تطلب الأمر عدة ثوانى من الشيخ حسان الذى بدا مقتنعًا بكلام الفتى كثيرًا، قبل أن ينظر إلى الخمس وعشرين تاجرًا المجتمعين، وهو يقول:

- ما رأيكم فيما يقوله سيف الدين ابن الشيخ وهدان؟

فسرت العديد من الهمهمات بين الجالسين، إلا أن شادي ظل يراقب الشاب الذى بدا عليه الهدوء وكأنه واثقًا من إنهم سيطيعون كلامه، ولمفاجأة شادي تكلم الشيخ حسان من جديد:

- حسنًا فليكن، بناء على اجتماع الرأى سأذهب في الغد لإطلاع الحاكم على أمر الحرس الملكى في السوق. .. ما هى المشاكل الأخرى التى كنت تتحدث عنها؟

وجهه الشيخ حسان كلماته الأخيرة لتاجر الشاب سيف الدين، الذي أومأ له استحسانًا لقرارهم، ثم قال بنفس الصوت الواثق الحاد الذى تحدث به أول مرة:

- حسنًا.. إن السوق يحتاج إلى إعادة تنظيم، القسم الشمالي كله للمنتجات الزراعية بالرغم من أن المزارع كلها تقع في إقليم وادي الحياة وينبوع الحياة والوديان، وكلها أقاليم غربية، كما أن رحلة تجارة العودة هذا العام اقتصر توزيعها على القسم الأوسط والغربي فقط.

لاحظ شادي نظرات الشيخ حسان المتفحصة للصبي، فقد كان شادي واثقًا من أنها تحتوي على الندم للسماح له بالتكلم، فقد كان الشيخ حسان أكبر تجار السوق لهذا كان يرأس مجلس التجار، وأى مشكلة تقع في السوق يتولى مشاكله، ولكنه كان يحب ألا تلاحظه الأعين لذلك كان نادرًا ما يقابل وزير التجارة أو يذهب بشكوى للحاكم، وبعد تفحصه للشاب بندم قال:

- هل أعددت عارضة بهذا الكلام يا بنى:

قال سيف الدين بذات الثقة:

- لا فلم أكن أعلم أن هناك مساحة للكلام في هذا الأمر اليوم، ولكن يمكنني تجهيزها في الغد إن أردت.

فقاطعه حسان وهو يقول واقفًا:

- اعرضها عليَّ في دكاني، فلا داعي لعقد مجلس آخر قبل التأكد من هذا الكلام.

ونظر إلىباقي التجار وقال:

- حسنًا فليخبر الجميع التجار المستأجرين في السوق إننى ذاهب للحاكم لعرض شكواهم عليه مباشرة.

فنظر زهران إلى شادي الذي كان لايزال يراقف الشاب وحركاته وثقته، وقال له:

- أعترف أنك محق فيما تقوله عن هذا المجلس.

فأومأ له شادي وخرجا معًا عائدًا إلى الدكان في السوق، وبينما هما في الطريق قال شادي:

- كيف حال سالم؟

- بخير إنه أفضل من الأمس.

فوضع شادي يديه على كتف زهران وقال:

- ما رأيك أن نحضر له الأطباء من الزمرد بدلا من أن نطلب تصريح السفر لذهابه.

فنظر له زهران وقد بدا عليه الضيق وقال:

- شعبان أرجوك لا تعيد هذا الكلام عليَّ.

فرفع شادي يديه عن كتف زهران ،وهو يقول:

- حسنًا، لا تغضب، على كلانا مضطر للرحيل الآن.

وعندما لمح نظرات الاستفهام على وجهه زهران أضاف:

- إنها أمور عائلية.. أنت تعرف.

وابتعد قليلا وهو يضيف:

- إلى اللقاء.

وابتعد عنه شادي عائدًا إلى القلعة ، فلقد اتفق مع قاسم أن يكون موجودًا قبل رحيله الذى أجله بأمر من الحاكم.

obeikan.com

لم يكد شادي ينتهي من تبديل ثيابه قبل أن يسمع طرقات على باب غرفته يتبعها دخول أحد الحرس يخبره أن الحاكم نور الدين يريده في أمر هام في الأسفل، استعد شادي للنزول، واتجه إلى قاعة الحكم وهو يتسائل ما الذي يريده الحاكم نور الدين منه الآن، كان الحاكم نور والوزير نوار وابنه القائد قاسم في انتظاره، دخل شادي وحي الحاكم، ومن ثم تكلم الحاكم بصوته الهادئ البطئ:

- أريدك أن ترافق القائد قاسم أيها الأمير ، أريد أن تتولى أمر الحاكم المنصور.

فوجئ شادي بقرار الحاكم، كان يعرف أن قراره هذا دافعه أن يشتت تفكيره عن شهندا، فقال شادي بحذر:

- مولاى الحاكم نور، هناك مشكلة في السوق، فهناك مبعوثًا أتى من مجلس التجار في الغد ليعرض على جلالتك بعض الأخطاء التى تحدث في السوق.

فقال الحاكم بذات الصوت الهادئ:

- سأتابع الأمر مع زيدان وزير التجارة.

بالرغم من صوت الحاكم الهادئ البطيئ إلا أنه كان يوحي بالحزم وأن الحديث في هذا الأمر قد انتهى، فانحنى شادي محييًا الحاكم وانصرف ليجهز نفسه للسفر إلى إقليم السعديين ومنه إلى الحدود الغربية، كان شادي يفهم خطة والده جيدًا، إنه يريد أن يبعده عن القلعة حتى يستطيع التفكير في هدوء في أمر شهندا.

وصل شادي إلىغرفته ولكن قبل أن يجهز نفسه للسفر، كانت هناك رغبة تدفعه للذهاب إلى زنزانة شهندا لرؤيتها والإطمئنان عليها قبل أن يغادر، فنزل من غرفته بهدوء واتجه إلى زنازين القلعة ، ومن ثم توجه إلى زنزانة شهندا في هدوء حتى لا تلحظ وجوده، كانت تجلس فوق أرض الزنزانة وكأنها ترفض استخدام الأثاث الرث للزنزانة ، كانت تضم ساقيها إلى صدرها وقد أراحت رأسها فوق ركبتيها، كان هناك ضوء يتخلل الزنزانة أكثر من الأمس، فأخذ يتأمل شعرها الأسود الذى تناثر حولها في سلاسة، ومن ثم نظر إلى الحارس وقال بصوت شبه هامس:

- مر للأميرة بطعام إضافي من مطبخ القلعة ، وملابس غير تلك الملابس البالية التى ترتديها.

واستدار عائدًا إلى غرفته، كان يعلم أن والده عندما يعلم بما فعل سيثور ولكنه لم يهتم، فشكلها كان يوحى بأنها لم تتناول الطعام منذ أيام، كما أن ثيابها بالية والطقس يكون باردًا في الليل.

وهو في طريقه عائدًا إلى غرفته قابله الأمير جاسم الذي ابتسم له، فلم يبادله شاديالابتسام، فهمس له الأمير جاسم وهو يمر بالقرب منه:

- أنا أعرف ما الذى تفعله يا شادي

ومن ثم تابع سيره، لم يعره شادي انتباها وتابع سيره إلى غرفته، ارتدى ملابس السفر ونزل لملاقاة قاسم والحرس الخاص، لينطلقوا إلى غرب المدينة ، إلى أقليم السعدين.

* * *

obeikan.com

(٥)

الحاكم المنصور

كان إقليم السعدين هوآخر الحدود المتحضرة لمدينة الأحلام، فبعدها عدة أميال من الصحراء ومن ثم الحدود الغربية لمدينة الأحلام، فسابقًا كان إقليم السعدين هو حدود مدينة الينابيع الساخنة، أما الآن، فحدود مدينة الأحلام هى الحدود القديمة لمملكة البحر العظيم، وقد خاض الحاكم نور الدين العديد من الحروب ليضم سور المملكة القديم إلى حدود مدينته الجديدة، مدينة الأحلام.

في غضون ساعات كانوا قد وصلو إلى الإقليم، توجهوا إلى قلعة القائد مهران قائد الجنود في إقليم السعدين، كانت القلعة لها شكل مربع من حجر الجرانيت بنى اللون، ولها أربع أبراج دائرية لحراسة حدود

obeikan.com

المدينة ، وقد تم بناء القلعة فوق هضبة عالية قليلاً، وكان الممر الحجرى المؤدي إليها مكشوفًا وله سور خشبى ضخم.

كان القائد مهران في انتظارهم عند المدخل الصخري الضخم للقلعة ، كان أقصر من قاسم عدة بوصات، له كتفين عريضين وقوام قوي يدل على قوته ومهارته في القتال، وما إن رأى شادي حتى انحنى وهو يقول بصوته المبحوح الخشن:

- مولاى ولي العهد.. مرحبًا بحضورك، إن كنت على علم بحضوركم مولاى لكنت استقبلتكم بنفسى عند مدخل الإقليم. .

فأشار له شادي أن يتوقف وهو يقول بصوت حازم قوي:

- شكرا لك ترحيبك أيها القائد مهران. .

وسار معه إلى داخل القلعة ، كانت من الداخل أكثر برودة بسبب الحجر التى بنيت منه، وقد أضاءت طرقاتها بمشاعل مصنوعة من الفضة والذهب، كان المدخل ممر طويل في نهايته بهو واسع يؤدى إلى قاعة الاجتماعات وعدد من القاعات التى تخص تنظيم الجيش والحماية في تلك المنطقة، وأربع سلالم كل منها يؤدي إلى أحد الأبراج الدائرية الأربعة، والتى كان ثلاثة منها مخصصين لإطلاق النيران والسهام وواحد للمراقبة.

دخل شادي مع القائد مهران وقاسم إلى قاعة الاجتماعات، وهى قاعة أخرى حجرية مضاءة بذات المشاعل الفضية والذهبية، وفي المنتصف كانت هناك طاولة خشبية دائرية وحولها اصطفت المقاعد، وكان هناك عدد من الحرس الواقفين في أركان الغرفة، توجه شادي إلى

المقعد الرئيسي وجلس وإلى يمينه جلس قاسم بعد أن طلب من أحد الحرس استدعاء باقي القادة، وما هى إلا دقائق حتى كان الجميع يجلسون حول الطاولة، كان كل القادة ضخام الجسم أقوياء البنيه، حينما جلس الجميع قال شادي بصوته الحازم:

- لقد أرسلنى الحاكم للتفاوض مع زعيم القبائل الساسونية والحاكم المنصور حول تلك الحرب التى يفكر في شنها على القبائل، والتى قد تؤثر بالسلب على حدودنا الغربية، سأنطلق في الغد إلى الحدود لاستطلاع الأمر ومقابلة زعيم القبائل، هل يمكنكم اطلاعى على الأحوال عند السور الغربى؟

فقال أحد القادة وقد كان يبدو عليه الكبر قليلا من شعره الأشيب، وقد ظل محافظًا على قوة جسده وخشونة صوته كالباقين:

- مولاي الأمير شادي ولي العهد، لقد كنت هناك في الصباح، كان الوضع هادئا بعد أن أنذر الحاكم المنصور القبائل منذ ثلاثة أيام، وقد أوقف عمليات التوسع التى كان يقوم بها، وانسحب جنوده من الأراضى الخاصة بالقبائل، وهدأ الأمر في الغرب تقريبًا.

وتوقف القائد عن الكلام ليكمل آخر كان يجلس مقابلا لشادي، له شعر طويل أسود وعينان ضيقتان وبشرة سمراء:

- مولاي إن عدد الجنود التى يستخدمها الحاكم المنصور في علمه التوسع تلك كبير، وقد كان من الواضح أنه يستعد إذا ما قمنا بصده وردعه، فقد كان يخطط لتخطي الأراضي الحيادية بيننا.

فأكد كلامه آخر كان يجلس إلى جواره ويبدو شبيهًا له في سمرة البشرة والشعر الطويل:

- إن القبائل الساسونية تقع على أرض كانت بيننا وبينهم منذ الأزل، وقد نصت المعاهدة بين السلطان بشير الأول والحاكم زيدان رحمهما الله منذ مائة عام على أن تظل الأراضى الساسونية على الحياد بيننا، وألا يمسها أحدهما، وهذا ما حرصنا عليه حينما كنا نقوم بعملية بناء الحدود لمدينة الأحلام منذ عشرين عامًا.

فنظر قاسم إلى شادي وقال بلهجة قوية:

- مولاي ولي العهد، إن ما قاله كلا من القائد نذير وعثمان و زيد صحيح، ولكنى لا أزال أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نظل على موقفنا حتى يتبين لنا الشر منهم، إن الحاكم المنصور لن يهدأ حتى يشن حربه علينا من جديد.

فنظر شادي إلى القائد كبير السن الذى تحدث في البداية ،وهو القائد نذير وقال:

- هل الجنود مستعدون عند الحدود؟ وهل تتم مراقبة الوضع بدقة؟

فأومأ نذير وهو يضيف مؤكدًا:

- إن الأبراج هناك مجهزة منذ ثلاثة أيام، وحتى اليوم بعد أن اطمأننا إلى هدوء الوضع لايزال الجنود يراقبون كل ظل يتحرك في الصحراء.

فقال شادي مستحسنًا ما سمعه:

- هذا جيد، وبالنسبة إلى زعيم الساسونية، هل أتى إلى المدينة ؟

فقال القائد مهران:

- نعم مولاي، لقد أتى بعدما هدده الحاكم المنصور، ومن ثم عاد إلى قبيلته ليبقى مع أهله.

فقال القائد عثمان الذى يجلس قباله شادي:

- مولاي ولي العهد يمكنني أن أجهز لك سرية ترافقك إلى هناك.

فبدا على شادي التفكير لثوانٍ قال بعدها بحزم:

- أريد في البداية الاطمئنان على أمن الحدود، ومن ثم سأنطلق إلى المدينة الغربية، أيها القائد مهران أرسل رسولا إليهم ينبئهم بذهابي.

المدينة الغربية هى مدينة ساحلية تقع على شاطئ البحر العظيم، مساحتها صغيرة تماثل مساحة مدينة الينابيع الساخنة قديمًا، لم تكن من مدن مملكة البحر العظيم، فقد كانوا مجموعة من القبائل المتنقلة التى استقرت على الشاطئ وعملو بالصيد، وهى من أقدم مدن الجزيرة، ويروى في الأساطير أنها كانت المدينة الوحيدة التى تأوى البشر في الجزيرة عندما كان الجن هم سكانها، هى مسقط رأس السلطان بشير الأول، فوالده كان القائد سالم البحري، له شأن عظيم في المدينة قبل أن ينضم إلى الجنود المرتزقة في المدينة الوسطى والتى كانت عبارة عن مدينة صغيرة في قلب الجزيرة، انضم اليها وعلى شأنه وارتفع وقبل مرور خمس عشر عامًا استطاع أن يصبح القائد الأعلى وابنه بشير كان معه خطوة بخطوة حتى استطاع سالم البحرى الاستقلال بالجيش عن المدينة الوسطى، ثم استولوا عليها بسهولة بسبب فطنة وذكاء سالم البحرى وولده، وبعد تلك الحادثة بعشرين عامًا كان

السلطان بشير الأول ووالده سالم البحرى يستوليان على معظم قبائل الجزيرة مكونين مدن كثيرة متفرقة كالينابيع الساخنة، الوادى الجميل، الزمرد، الفيروز، كوكب الأبيض و الأسود والنجوم السبع، وقبل أن يكمل سالم البحرى استلاءه على المدن الموجودةفي الجزيرة مات وترك ابنه، والذى عمل على توحيد المدن التى أسسها مع والده وكون مملكته الهائلة مملكة البحر العظيم ،والتى كانت حدودها تمتد من الساحل الشرقى للجزيرة وقبائل المميارق الشرقية، مرورًا بسلسلة الجبال العظمى في الشمال ومدن شماليه صغيرة، والقبائل الساسونية والمدينة الغربية في الغرب، وقبائل الخالدين ومدنية الفاضلين في الجنوب، وكان طموح السلطان بشير توحيد كل الجزيرة تحت إمارته، ولكنه مات قبل تحقيق ذلك.

استغرق الأمر منهم يومين وليلة حتى وصلو إلى المدينة الغربية، عبر شادي أسوار المدينة العالية في صباح اليوم التالىلتحركهم، ومعه سرية من أفضل الجنود ليرافقوه، كانت قلعة الحاكم في شرق المدينة ، قرب مدخلها، فلم يحتج الأمر منهم أكثر من ساعة حتى وصلوا إلى القلعة ، كانت قلعة فخمة تليق بغرور الحاكم المنصور، لها أبراج عالية مزخرفة بالذهب والفضة، وكانت مساحتها كبيرة ومليئة بالحدائق المزدهرة.

توجه شادي مع حرس الحاكم المنصور إلى قاعة الحكم، كانت القلعة من الداخل زاخرة بالألوان ويغلبها اللونين الفضي والذهبي، وكانت قاعة الحكم قاعة كبيرة لها نوافذ عالية من الزجاج المرسوم، وأعمدة ذهبية ومقاعد وثيرة على امتداد القاعة ، وفي مقابل الباب

الخشبى المزخرف كان عرش الحاكم، مقعد كبير منجد باللون الأخضر ومزدان باللؤلؤ والماس، مما جعل شادي يشعر أن كل شئ من حوله يبرق.

كان الحاكم المنصور طويل القامة، له جسد ممتلئ وشعر بنى أشعث وعينان جاحظتان ولحية طويلة تغطي ذقنه ورقبته.

دخل شادي القاعة البراقة، حيا الحاكم الذى بادره قائلاً:

- الأمير ولى العهد بذاته يأتى لزيارتنا.

فابتسم شادي وهو يتخذ لنفسه مقعدًا ويقول:

- كيف حالك أيها الحاكم؟

مال على الحاكم رجل قصير كان يقف إلى جواره، كان شادي يعرفه فهو وزيره جعفر، راقبه شادي وهو منحني فوق أذن الحاكم يهمس له، ثم اعتدل وواجه نظرات شادي بابتسامة سمجة و ثم قال الحاكم:

- كيف حال الحاكم نور الدين؟ لم أره منذ زمن طويل.

فقابل شادي ابتسامة الوزير بابتسامة مقابلة و ثم قال:

- الحاكم بخير، وقد أرسلنى برسالة لك مولاي.

فابتسم الحاكم ونظر إلشادي منتظرًا منه أن يطلعه على فحوى الرسالة، فتابع شادي:

- لقد وصل للحاكم نور الدين ما تقوم به من حملات توسيعيةفي الشرق، في اتجاه حدودنا الغربية، ويبارك لك توسعك ولكنه يود أن

يسألك ما تريده بشأن القبائل الساسونية، فلقد أتى قائدهم إلينا مستغيثًا، يقول إنكم تهددونه بالقتال، وطردهم من أراضيهم.

أخذ الحاكم المنصور لدقائق يمرر يديه داخل لحيته البنية الطويلة، وينظر إلشادي مفكرًا و ثم قال:

- إن القبائل الساسونية خارج أراضيكم، وليست من حلفائكم، فما هو السبب الذي يدفع الحاكم نور ليتقصى بشأنهم؟

فقال شادي بهدوء وهو ينظر في عينيى الحاكم المنصور:

- نحن نعرف من هم حلفاؤنا ومن هم أعداؤنا، ولكننا كنا نطمع في معرفة رأيكم في أمر القبائل، فهي قبائل ذات شأن عظيم في الجزيرة، وهناك الكثير من المدن والقبائل التى على استعداد للوقوف معهم في محنتهم.

فألقى الحاكم نظرة سريعة على وزيره و ثم قال:

- شكرا لاهتمامكم، ولكننا قادرين على تولي الأمور بأنفسنا، إن القبائل الساسونية قد تعدت على أراضينا.

فقام شادي وهو يقول:

- حسنًا لقد أجبت استفسارنا، ولكن نريد أن نعلمكم أننا لن نقبل أن تمس حدودنا وأننا مستعدون لهذا.

وغادر القاعة ، كان يعلم أن حضوره إلى الحاكم المنصور لن يوصله إلى شئ، فقد كان يعلم أن الهدف الرئيسى له من عملية التوسع تلك هو أن يثير حفيظتهم، وأن تعود الحروب من جديد من بينهم، وهذا ما

أكده الحاكم بكلامه له، فبالرغم من أن القبائل الساسونية ليست من حلفاء مدينة الأحلام إلا أنها ليست من حلفاء المدينة الغربية أيضًا وهذا يتيح للحاكم نور الانضمام إلى صفوف القبائل في تلك الحرب إذا ما قامت.

* * *

(9)

الحدود الغربية

عاد شادي إلى حدود مدينة الأحلام دون المرور على القبائل الساسونية، فالبرغم من أنه كان قد خطط لذلك قبل مغادرته مدينة الأحلام إلا أنه لم يود أن يثير حفيظة الحاكم المنصور بأن يؤكد له حقيقة تأييدهم للقبائل الساسونية فوقهم، ليس في الوقت الحالى.

obeikan.com

وصل شادي إلى حدود مدينة الأحلام حيث كان قاسم ينتظره، وما إن قابله شادي حتى قال له قبل أن يرتجل من على جواده:

- راقبوا الحدود جيدًا، أريد الحماية أن تكون مضاعفة، الحاكم المنصور قد يشن هجومه على الساسونين قريبًا.

و ثم وصل إلى مخيم الحرس، وضع جواده وكان قاسم يتبعه، فما إن دخل شادي وجلس، حتى قال له قاسم:

- ما الذي حدث عند المنصور مولاي الأمير ؟

- لا شئ، ولكن يلمح لمعرفته أننا في صف الساسونين، وأنه قادر على التعامل معهم، حتى ولو تحالفنا معهم.

- هل تود إبلاغ مولاي الحاكم نور؟

فاعتدل شادي وهو يقول:

- لا ليس الآن، عندما نتأكد من نوايا المنصور، أرسل لى زيدا، وأريدك أن ترسل أحدا لمهران يطالبه بتأمين الأبراج جيدًا، كما أريد أن يرسل أحدا للحدود الشمالية الغربية عند الأبراج القاسمية.

فانحنى قاسم وهو يقول:

- أمرك مولاي.

قضى شادي ليلته في خيام الحرس عند الحدود على بعد ميلين من أسوار المدينة ، لم تكن تلك ليلة شادي الأولى في الصحراء، فقد كان سابقًا من القادة في أحد الحروب مع المدينة الغربية، ولكنها كانت أسوأ ليلة له على الإطلاق، فالجلوس في ليل الصحراء كان دافعًا قويًا

له ليسبح في أفكاره، وخاصة بعد أن اتجه قاسم إلى الأسوار ليطمئن على الوضع هناك، وبقاء شادي بمفرده.

تمدد شادي داخل خيمته محاولاً الاسترخاء والنوم، ولكن قلقه وتفكيره كانا مانعين للنوم والاسترخاء، لم يكن قلقه من الحاكم المنصور والحرب التى قد تشن ضدهم، فقد كان شادي مرحبًا بتلك الفكرة حتى أنه ظن لو علم أحد بمدى ترحيبه بهذه الحرب لظن أنه جاسوس ضد الحاكم نور.

ولكن ما يقلقه كان شيئًا آخر بعيد، شئ على بعد أميال عديدة، عاد تفكيره يسبح من جديد في شهندا أسيرةالقلعة ، وحقيقه أمرها.

كان تفكيره قد هداه لأن يصدقها، ويصدق حقًا أنها الأميرة شهندا حمدان ولية عهد كوكب الأبيض و الأسود، ولكن كيف يبرر موقفها، هذا ما كان يعجز عنه، وجعله غير قادر على النوم.

تعجب شادي من نفسه كثيرًا، كيف تأسر تفكيره، وكيف تغزو عقله بكلماتها الجافة وكبريائها وتعجرفها الزائدان، كيف لا يستطيع الهرب من عينيها البنيتين الصافيتين اللتين تذكرانه بحجر العقيق البنى الصافي.

حاول شادي تجاهل كل أفكاره، أو أن يفكر في الحرب التي على وشك الوقوع، أو في السوق ومشاكله، ومرض سالم ابن زهران التاجر صديقه، ولكن هيهات، كانت تعود لتسيطر على أفكاره من جديد.

وقبل أن يستسلم لأفكاره سمع صوتا حادا ومرتفعا يقول مخاطبًا الحرس خارج خيمته:

- أريد رؤية الأمير ولى العهد.. الأمر هام جدًا.

فقام شادي ليرى ما يحدث خارج خيمته، كان المتحدث هو زيد، قائد شاب من حراس الأبراج، وما إن رأى شادي حتى انحنى وهو يقول:

- اعتذر مولاى عن الإزعاج، ولكنه أمر هام، لقد بدأ المنصور هجومه على القبائل الساسونية بالفعل، بجيش كبير الحجم.

ذهل شادي لكلمات زيد، بالرغم من أنه كان يتوقع هذا، إلا أنه لم يكن يتخيل أن يكون بتلك السرعة، فقال شادي موجهًا كلامه للحارس:

- جهز لى رماح - جوادي - سأتجه إلى الحدود الآن.

و ثم نظر إلى زيد وتابع:

- منذ متى بدأ الهجوم؟

- منذ نصف ساعة تقريبًا، القائد قاسم يراقب الوضع الآن، لا نتوقع أن يهاجموننا.

كان الحارس قد عاد برماح جواد شادي الأبيض، فامتطاه شادي، وهو يقول مخاطبًا زيد:

- أرسل أحدا إلى إقليم السعدين أريد أن يستعد القائد مهران، وأن يرسل كتيبة من الرماة إلى الأسوار، و ثم اذهب بنفسك إلى الأسوار الشمالية الغربية وتأكد من الوضع هناك.

وانطلق شادي بجواده إلى الأسوار الغربية، كان قاسم في انتظاره، وما إن رآه حتى قال:

- مولاي الأمير ، إن الحاكم المنصور يقاتل بضراوة، فمنذ نصف ساعة ونيرانهم تنير الصحراء، إن القبائل الساسونية لا تمتلك القوة لردعهم وستقع الأرض في يد الحاكم المنصور في غضون ساعات على أحسن تقدير.

فنظر شادي أمامه متأملا الأسوار الشاهقة أمامه و ثم قال لقاسم دون أن ينظر إليه:

- هل الرؤية من الأبراج جيدة؟ هل بإمكاننا رؤية أى شئ من المعركة؟

- لا فالقتال خارج حدود ملاحظاتنا، إننا نرى ضوء النيران وهو يخترق سواد الليل، ولكن من أثر تحرك الخيول وصهيلها المدوي يبدو أنه خرج بجيش كبير.

فترجل شادي من على جواده وهو يقول:

- حسنًا، حتى الآن لا أريد سوى مراقبة لكل الحدود، نحن لا نأمن غدر المنصور، ولكن طالما هو بعيد عن أراضينا، فلا دخل لنا بما يحدث بينه وبين الساسونين.

فأومأ له قاسم وهو ينحنى متجهًا إلى أبراج المراقبة على بعد بضعة أقدام منهم، بينما ظل شادي يراقب الأسوار وهو لا يعرف إذا كان ما قرر فعله هو الصواب أم لا.

سطع ضوء الشمس قبل أن تهدأ نيران المنصور، فقد كان الحرس والجنود على الأبراج قادرين على رؤيتها وإن أصبح الأمر أصعب في ضوء النهار.

وكان شادي لا يزال فوق أبراج المراقبة، فقبل الفجر بساعة عاد زيد ليطمئن شادي أن كل شئ تحت المراقبة على طول سور المدينة ، وأنه لا داعى للقلق، ففي حين يقرر المنصور نقل هجومه في اتجاههم سيكون جيش المدينة كله على أهبة الاستعداد.

وكان شادي يشك في أن يقوم المنصور بمهاجمتهم اليوم، فهو ليس بالأحمق ليشتري عداوة الحاكم نور الدين في الوقت الذى يقاتل فيه الساسونين، فبالرغم من أن الساسونين لا يمتلكون القوة والعدة لصد هجومه إلا أن نفوذهم وسلطانهم ممتد في الجزيرة كلها. صارت الشمس في كبد السماء وخفت نيران المنصور، واستطاع حرس الحدود أن يوقنوا أن جنود المنصور قد انسحبوا إلى مدينتهم بعد أن استولوا على معظم الأراضى الساسونية.

وفي نهاية اليوم أرسل شادي سرية صغيرة لتفقد الأحوال وبعد عدة ساعات من الانتظار عادوا ليأكدوا الكلام الذى قاله حرس الحدود.

قرر شادي العودة إلىإقليم السعدين، والانتظار ليوم آخر هناك، وعاد معه كلا من قاسم وزيد، بعد أن شددوا على الجنود أهمية المراقبة الدقيقة لكل التحركات من حولهم. .

لم يكن شادي من قبل يشعر بالشوق للعودة إلى العاصمة، ولكنه كان يريد حقًا العودة، فهناك العديد من الأمور العالقة التى تركها وراءه، وكان بالفعل يريد أن ينهيها.

دخل إلى غرفة كان مهران قد جهزها ليستريح بها ولي العهد، فقد كان متعبًا، ليس مما حدث في اليومين السابقين، بل من التفكير.

كان شادي قد أرسل رسولا إلى الحاكم نور في العاصمة ليخبره بما حدث حتى الآن، وفي صباح اليوم التالى عاد الرسول ومعه تعليمات جديدة من الحاكم نور الدين.

كان شادي في قاعة الاجتماعات الحجرية ذات المشاعل الفضية ومعه القائد زيد ومهران وقاسم يناقشون آخر تطورات الوضع عند حدود المدينة ، حين دخل الرسول حيا كل من ولى العهد والقادة الثلاثة ومن ثم قال:

- إن الحاكم نور الدين يرغب في أن يتم إرسال مجموعة من الرماة والفرسان إلى القبائل الساسونية، أن يكونوا على مرمى مراقبة الحاكم المنصور، لكى يعلم أننا معهم، وأن هجومه الليلة الماضية هو الأخير على القبائل دون أن يتدخل الحاكم نور الدين.

فكر شادي مليًا في كلام الرسول قبل أن يسمح له بالانصراف، ونظر إلى القادة معه ليعرف رأيهم، كان قاسم هو أول من تكلم قائلا:

- مولاي ولي العهد، إن الحاكم نور الدين محق، لقد كان الحاكم المنصور يتأكد من هجومه هذا إذا كنا سنحمي الساسونين أم سنراقب فقط، وإن تأكد أننا سنراقب فقط، سيتابع هجومه ليستولى على كل أراضيهم.

فكر شادي في كلام قاسم حين أضاف مهران:

- ولكن لن يجعل تصرف مثل هذا الحاكم المنصور يستغيث بحلفائه في الجنوب؟

فأجابه زيد متسائلا:

- إن لم نهاجمه لن يكون هناك سبب للاستغاثة، نحن نحمى القبائل التى لجأت إلينا.

ونظر ثلاثتهم إلشادي، فهو صاحب الرأى الأخير بعد كل شئ، وأخيرًا قال:

- ارسل يا زيد سرية من أفضل الرماة لحراسة القبائل الساسونية، وأنت يا قاسم سيكون عليك البقاء عند الحدود الغربية، جهز جنود الحرس جيدًا، وكذلك أنت يا مهران، هنا في إقليم السعدين ستبقى على اتصال مع قاسم وأنت على أهبة الاستعداد، سأعود أنا إلى العاصمة وسأعمل على أن يكون جيش العاصمة مستعدًا ،وأنت يا زيد السرية التى ستنطلق بها صوب الساسونين عليك أن تحرص على ألا تحرض الحاكم المنصور وإن بدأ هجومه أخبره أن الحاكم نور الدين فرض حمايته على القبائل، أعتقد أن هذا قد يردعه قليلا.

ظل شادي باقى اليوم يراقب الوضع، وعندما اطمئن أن الحاكم المنصور لن يهاجم من جديد، أكد على القادة أهمية تنفيذ أوامره، ومن ثم عاد إلى العاصمة لسبب ظاهر وهو العمل على تجهيز جيش العاصمة تحسبًا لأى هجوم مفاجئ، ولسبب آخر لم يعلمه سواه.

* * *

(10)

العاصمة من جديد

وصل شادي للعاصمة مع صباح اليوم التالى، وقبل أن يتوجه إلى غرفته ذهب إلى قاعة الحكم حيث كان كل من الحاكم نور الدين والوزير نوار والأمير جاسم، حيا شادي والده، ثم شرح لهم كيف ترك الأمور عند الحدود الغربية، ثم استأذن والده ليصعد لتبديل ثيابه ويستريح.

كان هناك شئ واحد يشغل عقل شادي وهو يصعد إلى غرفته، كانت رغبة ملحة كان من الصعب تجاهلها، كان يتمنى أن يتجه إلى سجون القلعة ليطمئن على شهندا.

obeikan.com

صعد إلى غرفته بدل ثيابه وقبل أن يستريح قرر المرور عليها.

كانت كما تركها، تجلس فوق الأرض وتضم ساقيها إلى صدرها وتريح رأسها فوق ركبتيها، كانت هناك قطعة من الملابس الموضوعة على حافة الفراش الخشبى، وصحيفة الطعام إلى جوارها، لم تبدل ثيابها، لقد رفضت ما قدم لها من ثياب ومن شكل صفحة الطعام يبدو أنها ترفض تناول الطعام، أمر الحارس أن يفتح له باب الزنزانة، تنبهت شهندا على الصوت الصادر من فتح الباب الحديدى، في حين تقدم شادي من الفراش وأمسك بالعباءة الموضوعة عليه وهو يقول:

- إن الطقس بارد هذه الأيام، ومثل تلك الملابس التى ترتدينها لن تقيقك شر البرد.

لم تقم بأي حركة، وكأنها لم تسمعه، ولكنه تابع:

- هل ترفضين تناول الطعام؟ أم أن هذا الطعام لا يعجبك؟ يمكننى أن آمرهم أن يحضروا طعاما من مطبخ القلعة.

فأصدرت ضحكة ساخرة دون أن تستدير، فاقترب منها شادي ووضع العباءة على كتفيها، وهو يقول:

- هذا أفضل.

هزت كتفيها لتسقط العباءة على الأرض خلفها، فنظر لها شادي مطولا ومن ثم انحنى وهو يقول ضاحكًا:

- الشمال أكثر برودة من الجنوب.. إن الطقس عندكم دائمًا مرتفع الحرارة.

ومن ثم وضعها على كتفها وهو يضيف بصوت منخفض:

- يمكنك أن تلقيها من جديد. .. سأعيدها.

لم تسقطها شهندا تلك المرة، وظل شادي واقفًا خلفها لثوانٍ ومن ثم جلس على الفراش وهو يقول:

- أما الطعام.. أتعلمين لن يقتلك امتناعك عن الطعام، إن الامتناع عن الطعام سيضعفك، سيظل يضعفك ويضعفك حتى تصبحين غير قادرة على الحركة.

كان يتكلم ببطء محاولاً حملها على أن تتناول الطعام، ولكنها أضافت ببرود دون أن تلتفت له:

- وفي النهاية سأموت.

لم يعلم شادي ما سبب شعوره بالضيق من تحدثها عن موتها بتلك السهولة، فقال بغضب:

- وهذا ما لا ترغبين به بالتأكيد، إن كنت أميرة وولية عهد مدينة كبيرةكمدينة كوكب الأبيض و الأسود، لن ترغبى في أن تموتى هنا وسط مجموعة من المساجين والمحكوم عليهم دون إثبات براءتك.

وقام واقفًا وأمر الحارس بأن يفتح له الباب، وأمره أن يأتى للأميرة بطعام من مطبخ القلعة.

وسار عائدًا إلى غرفته وهو يتعجب من مدى الضيق الذي أصابه وسبب غضبه حين قابل قطر الندى، كانت آتية من الحديقة الخلفية للقلعة ، ابتسمت له ووقفت أمامه وهى تقول معاتبة له:

- لقد نسيت ما وعدتنى به؟

حاول شادي تذكر ما الذى تتحدث عنه، ولكنها تابعت:

- لقد وعدتني أنك ستأخذني لإقليم ساحل البحر العظيم عندما يحل الصيف ولكنك لم تفعل؟

سمع شادي كلمات والدته تتردد في ذهنه، فابتسم لها وهو يقول:

- أعتذر يا قطر الندى، أنت ترين ما نمر به، والآن أعذرينى أريد العودة لغرفتى لأستريح قليلا.

وصل إلى غرفته واستلقى فوق فراشه بملابسه، لقد كان متعبًا، كما كان يفكر أيضًا في غضبه المفاجئ في شهندا، وفي كلمات والدته عن قطر الندى، إنه لا يستريح لعمه الأمير جاسم كثيرًا ،ولكن قطر الندى ومنذ أن أصبح عمه الأمير جاسم هو القائد الأعلى المسئول عن الحرس الملكي وهي كأخته الصغيرة، ولا تزال كذلك، كما كان يفكر في السوق وفي آخر مرة نزل إليه لقد مرت مدة طويلة. ...

سمع طرقات على الباب فاعتدل شادي وهو يقول:

- ادخل.

دخل الحارس وهو يقول:

- مولاي ولي العهد، الحاكم نور الدين ينتظرك في غرفة الطعام.

كان الضوء القادم من النافذة خافت، فأعاد نظره إلى الحارس وهو يسأله:

- ما الوقت الآن؟

فأجابه الحارس:

- وقت الغروب مولاي.

وانحنى وخرج من الغرفة بينما ظل شادي جالسًا لدقائق، لم يشعر أنه نام، لقد نام لمدة طويلة.

قام واقفًا وجهز نفسه للنزول إلى قاعة الطعام، كان والده في انتظاره ليتناولوا طعام العشاء معًا، كان الحاكم نور الدين يجلس على رأس المائدة وإلى يساره الحاكم بدر البدور وإلى جوارها الأميرة علياء زوجة الأمير جاسم وإلى جوارها ابنتها، وفي الجهة المقابلة جلس شادي إلى يمين الحاكم وإلى جواره عمه الأمير جاسم.

وقبل أن يبدءوافي تناول طعامهم ،قال الحاكم متسائلاً:

- لقد زرت شهندا اليوم أليس كذلك؟

شعر شادي بقليل من الارتباك، فلم يتوقع أن يتكلم الحاكم في هذا على الطعام في وجود عائلة عمه الأمير جاسم، ولكنه أجاب دون أن ينظر تجاه الحاكم:

- بلى.

فتابع الحاكم:

- وأمرت لها بالطعام والملبس.

رغب شادي في أن يرفع عينه لينظر إلى الحاكم ويقدر ما إذا كان غاضبًا أم لا، إلا أنه من جديد اختار الإجابة المقتضبة قائلا:

- نعم.

عمت دقائق من الصمت بدا خلالها الزهو على الأمير جاسم، فتوقع شادي أنه هو من أخبر الحاكم عن زياراته إلى شهندا، ولكن الصمت الذى استمر جعل شادي يتخيل أن الحاكم قرر ترك الموضوع وأن سؤاله كان مجرد سؤالا عابرًا، ولكن الصمت لم يستمر فقد تابع الحاكم التحدث من جديد:

- هل تأكدت من كونها أميرة كوكب الأبيض و الأسود؟

تلك المرة نظر شادي إلى والده وهو يقول:

- إنك لم تسمح لى بإرسال أحدا للتاكد من الختم، فكوكب الأبيض و الأسود من عاداته الختم مثلنا، ففي ظل الظروف الحاليةليس باستطاعتنا إرسال أحدا لكوكب الأبيض و الأسود، وفي كل الحالات لن تكون العواقب جيدة.

نظر الحاكم مطولا لشادي، ومن ثم قال:

- خذ واحدة من وصيفات الحاكمة للتأكد، علينا القيام بكل ما نستطيع، لا يمكننا تركها هكذا في السجن، وإن لم تكن الأميرة حقًا ستحول في الغد لمبنى القاضي، وستكون محاكمتها بإشرافي أنا.

وصمت الحاكم، فقال شادي:

- وإن كانت الأميرة حقًا؟

نظر الحاكم مطولا أمامه وكأنه يتخذ قرارًا، وأخيرا قال:

- إن كانت الأميرة حقًا ففي تلك الحالة ستظل في زنزانة الأسرى وسأرسل رسولا لكوكب الأبيض و الأسود.

ولم يتابع، كان شادي يعلم أن الحاكم لا يعلم حقًا ما سيكون تصرفه في حين أنها الأميرة حقًا، وهذا هو الشئ الذي كان شادي متأكدًا منه.

أنهى شادي طعامه سريعًا، ثم قال مخاطبًا والدته:

- أمى هل سترسلين إحدى وصيفاتك؟

فأومأت الحاكمة، فقام شادي وهو يتابع:

- من فضلك اجعليها تتجه إلى السجون، سأكون هناك في انتظارها.

وقام شادي متجهًا إلىالزنازين، تحت نظرات عمه المتفحصة ولكنه لم يهتم، فلقد كان يرغب في أن يمهد الأمر لشهندا.

كانت تجلس كما هي عادتها، ولكنها كانت تلف جسدها بالعباءة التى وضعها شادي على كتفيها، فتح الحارس الزنزانة لشادي الذي دخل وجلس بلا كلام، ومرت دقائق قبل أن يقول:

- أيتها الأميرة، هناك أمر ما أود سؤالك عنه؟

لم تلتفت له، فتابع شادي:

- من المعروف أن كوكب الأبيض و الأسود مثلها مثل معظم مدن الجزيرة تقوم بختم أطفال الحاكم بخاتم الحاكم، ولقد أمر الحاكم

نور الدين بإرسال إحدى وصيفات الحاكمة لتقوم بالتأكد من وجود هذا الختم فوق كتفك الأيسر.

قامت شهندا واقفة، ونظرت إلى شادي وهي تقول بجفاء:

- حسنًا كما ترغب.

وجلست فوق الفراش الخشبي، في حين فتح الحارس الباب لتدخل إحدى وصيفات الحاكمة، فنظر شادي لشهندا التى لم تكن تنظر إليه، ثم استدار لمغادرة الزنزانة.

أغلق حارس الزنزانة الباب الحديدي، ثم الباب الخشبي كما أمر شادي، ووقف خلف الباب في انتظار خروج الوصيفة، لقد كانت نبضات قلبه تتسارع وهو يتخيل أنها ليست الأميرة، هذا سيكون معناه أنها مجرد جاسوسة وأن حياتها ستكون نهايتها في مبنى القاضي.

أخرج شادي الفكرة من رأسه، وهو ينظر إلى الباب في انتظار خروج الوصيفة.

وما هي إلا ثواني حتى طرقت الوصيفة الباب ففتحه الحارس وخرجت الوصيفة، تقدمت من شادي وهي تقول بصوت خفيض:

- هناك ختم بذات حجم الخاتم الذى في أصبعها فوق كتفها الأيسر.

شعر شادي بسعادة لا مبرر لها، فهي في كلتا الحالتين مذنبة، ولكنه كان سعيدًا لأنها على أقل تقدير لن تلقى حتفها في مبنى القاضي وأنه لم يكن مخطئًا عندما صدقها.

انصرفت الوصيفة بينما عاد شادي للداخل، كانت شهندا لا تزال جالسة فوق الفراش وإلىجوارها العباءة.

جلس شادي فوق المقعد من جديد، ثم قال:

- ضعي العباءة فوقك، الطقس الآن أكثر برودة من الصباح.

أطاعته شهندا تلك المرة، ووضعت العباءة فوق كتفيها دون أن ترفع رأسها، كانت تحدق في الأرض الحجرية للزنزانة.

ظل شادي يراقبها، كانت تبكي بلا شك، ولكنها كانت تحاول منع نفسها، فقال شادي:

- أيتها الأميرة، هل يمكنك أن تخبرينى ما السبب الحقيقى لمجيئك؟ الآن بعدما تأكدت من كونك الأميرة لا أستطيع فهم الأمر حقًا.

رفعت شهندا عينيها ببطء، وقالت بكبرياء وجفاء شديدان:

- ألم تتأكدوا من أننى الأميرة، أم أن هناك شيئا آخر أستطيع فعله لإقناعكم.

وخلعت الخاتم من أصبعها وألقته في اتجاه شادي وهي تتابع:

- يمكنك التحقق من أنه الحقيقى، إنه مصنوع من خليط من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، من غير المعقول أن أكون قد سرقته من الأميرة الحقيقية.

التقت شادي الخاتم الذى وقع بجوار قدمه، كانت شهندا تبدو منهارة، ولكنها تحاول التماسك، قام شادي وجلس إلى جوارها وهو يقول:

- أتمنى فقط أن تخبرننى بما يحدث معك؟ أنا أعرف أنك الأميرة، ولكنى لا أفهم حقيقة وجودك هنا

لم تجبه وظلت تنظر في الجهة الأخرى، مما جعل شادي يفقد أعصابه ويقول بضيق:

- ليس هناك سبب واحد يجبرنى على الجلوس هنا وتحمل جفاءك وكبرياءك هذا، أنا أفعل هذا لأننى أرغب في مساعدتك، وهذا ما لن أقدر عليه دون مساعدتك.

كان شادي يتكلم بصوت مرتفع غاضب، نظر إليها كانت تنظر أمامها مما ساعده على رؤية وجهها، كانت عيناها العقيقيتان مصبوغتين باللون الأحمر من كثرة البكاء، كان شكلها مؤلم، فتمتم شادي:

- أعتذر لك.

ووضع الخاتم في يديها وقام ليغادر الزنزانة، ولكنها أوقفته قائلة:

- أيها الأمير. .

فالتفت إليها شادي، كانت واقفة تنظر إليه بحزن وضعفت، فتابعت:

- ما الذى تريد معرفته؟

مسح شادي وجهه بكفه، وعاد إليها وجلس حيث كان يجلس من قبل، وقال بهدوء أكثر:

- أريد معرفةكيف انتهى الأمر بأميرة وولية عهد أكبر مدن الجنوب أسيرة في زنزانة ، والمبرر الوحيد لوجودها هنا هو أنها أتت لتنتقم، أين حرسك؟ لماذا لم تأت بجيش مجهز؟ أين من يبحث عنك؟

أخذت شهندا نفسًا عميقًا، ثم جلست إلى جواره وقالت:

- كان من المفترض أن قدومى هنا جزء من خطة الوزير جواد، لقد أخبرنى أنه سيخرج بجيش في أثرى ليهاجم المدينة بعد أن أكون أنا قد أجهزت على الحاكم نور الدين، فيستغل ارتباك المدينة للهجوم عليها، لقد كان يلح على منذ صغري أن على الانتقام، على قتل قاتل أمى، على كشف سره إلى الجزيرة كلها.

التقتت أنفاسها وتابعت دون أن تنظر إلشادي:

- منذ خرجت إلى العالم وأنا أطيع جواد وزيري ووزير أمي من قبلي والواصي على، الشخص الوحيد الذي يهتم لأمري، كانت كل أموري على أفضل ما يرام حتى خمسة أشهر ماضية، عندما بدأ جواد في ذكر مقتل أمي وعن عدم أحقيتى في العرش الذى قتلت لأجله، وجعل الجميع يتحدث معي عن الانتقام، وعن أهمية قيامي بذلك، وعن نبوءة لأحد أفراد قبيلة الميمارق في الشمال، وأنه من المفترض أن كل شئ محكم وأننى لن أتعرض لأى خطر، ولكن ها أنا ذا.

وما أن انتهت حتى أخذت تبكى بشدة بعد أن دفنت رأسها بين كفيها، ولكن تلك المرة لم يتردد شادي بل رفع يديه وأخذ يربت على كتفيها، وما إن شعرت به حتى رفعت رأسها ومسحت دموعها وهي تقول:

- أعتذر عن ذلك. .

وقامت واقفة وابتعدت عنه قليلا، ظل شادي يراقبها لثوانٍ، ثم قام وخرج من الزنزانة وهو يفكر في كل كلمة قالتها شهندا.

* * *

obeikan.com

(11)

حليف المنصور

لقد مرت أيام على آخر مرة كان فيها شادي في السوق، استقبله زهران بالترحاب وهو يقول لائمًا:

- أين كنت؟ لقد افتقدناك، كما أن زهران الصغير لا يكف عن السؤال عنك.

فضحك شادي وهو يقول:

- لقد وعدته أن أقضى يومًا معه، ولكنى منذ انتهى المهرجان وأنا منشغل في بعض الأعمال العائلية.

وتذكر شادي آخر مرة كان فيها في السوق عندما اشتد المرض على سالم ابن زهران، فقال بقلق:

obeikan.com

- كيف حال سالم الآن؟

بدا الحزن على وجه زهران الممتلئ وهو يقول:

- بخير. .

طريقة كلام زهران أقلقت شادي، فجلس شادي وهو يقول:

- هل تحسن حاله؟

استدار زهران وتظاهر بأنه يعيد ترتيب بعض الآنية الزجاجية وهو يقول:

- لقد استدعينا الحكيم من جديد. .. سيريحه الله من آلامه تقريبًا.

كان صوت زهران يكافح لكى لا يبكي، تفاجأ شادي من كلام صديقه، فقال بضيق وحزن:

- هل الوصفة التى وصفها له الحكيم لا تجدي معه؟

كان زهران لايزال يتظاهر بتعديل الآنية، حين قال ببطء:

- لقد أخبرنا الحكيم في المرةالأخيرة أن حالة سالم تتراجع، وأنه مع سعاله الدامي لن يقوى على المقاومة كثيرًا.

شعر شادي بغصة في حلقه، ولم يعرف ما يقوله، فقام واقفًا وعاد لدكانه، لا يوجد ما يمكنه تقديمه لزهران وعائلته، لقد كان يتمنى لو اقتنع زهران بزيارة الحاكم وتقديم طلب التصريح للسفر، لقد كان سيحرص على أن تنتهى إجراءات سفرهم دون تأجيل ودون تكاليف

باهظة، ولكن برفض زهران لايوجد ما يقوي على فعله، وكان هذا أكثر ما يحزنه.

وبينما شادي في أفكاره الحزينة، قال زهران من جديد:

- إن سامي الخباز يبلغك سلامه ويدعوك إلى زفاف أخيه. .

فسأله شادي متعجبًا:

- هل ذهبت مجددًا إلى إقليم وادي الحياة؟

- لا، لقد زارني

سامي هنا، لقد كان في العاصمة منذ يومين.

فأضاف شادي قبل أن يلتفت إلسيدة كانتتقف أمامه:

- أنًا حقًا سعيد أنهم يتخطون الأزمة بعد موت والدهم.

، ثم التفت إلى السيدة التى كانتتقول:

- هل أجد عندك حرير أزرق؟

فأحضر لها شادي ما ترغب فيه، حين تذكر اجتماع تجار السوق، فسأل زهران وهو يلف التوب الذى اختارته السيدة:

- ماذا فعلتم في أمر الحرس؟ هل ذهب الشيخ حسان إلى الحاكم؟

كان شادي يعرف أنه فعل، ولكن كان يجب عليه أن يسأل ليبدو الأمر طبيعيًا فأجابه زهران:

- نعم لقد ذهب.. هل تذكر سيف الدين بن الشيخ وهدان؟

استطاع شادي بسهولة تذكر الشاب قوي الشخصية الذي كان في مجلس التجار والذى كان يمتلك الجرأة لعرض أرائه بالرغم من صغر سنه، وحداثة انضمامه للمجلس، فقال متسائلاً:

- ماذا به؟

- لقد اقتنع الشيخ حسان بكلامه وبالعارضة التى قدمها عن إعادة تقسيم السوق، والشيخ حسان يدرها لتقديمها إلى وزير التجارة.

كانت السيدة قد انصرفت، فجلس شادي من جديد على مقعد خارج دكانه إلىجوار زهران وهو يقول:

- إن هذا أمر جيد، أن سيف الدين هذا شاب مميز، لا أحد يجرؤ على عرض أرائه بهذه الجرأة أمام الشيخ حسان.

فوافقه زهران، تلك المرةكان شادي هو من رأى زهران الصغير الذي حيا جده وطمئنه على حال والده، ثم توجه إلى دكان شادي وهو يقول معاتبًا:

- لقد أخبرتني أننا سنقضى الوقت معًا عندما ينتهى مهرجان العودة، ومنذ انتهى المهرجان لم تفعل.

فابتسم شادي وهو يقول:

- لا تغضب مني، ولكن أعمال عائلتي شغلتني، ولم أجد الوقت الكافي لأنزل إلىالسوق.

وقضى شادي نهاره مع زهران الصغير، لقد كان صبي مرح وقوي، وقد سعى جده على أن يجيد الرماية واستخدام السيف منذ صغره.

ومر الوقت وقبل غروب الشمس، كان شادي وزهران يغلقان دكانهما، انتظر شادي حتى اختفي زهران العطار وحفيده ومن ثم تنهد وسار عائدًا إلى القلعة ، كان يفكر في سالم المريض هذا، فلقد كان يشفق على حال صديقه الذي يرى ابنه المريض وحفيده الصغير، ولكن سرعان ما تحول تفكيره إلى الشئ الوحيد الذى كان يبقيه مستيقظًا في الأيام السابقة، عاد عقله ليسبح مجددًا في سجون القلعة وفي أمر الأسيرة الغامضة.

وصل شادي للقلعة ، صعد لتبديل ملابسه، ثم توجه إلى سجون القلعة ، كعادتها كانت تجلس على الأرض تضم ساقيها إلى صدرها وتنظر إلى النافذة الصغيرة في أعلى الزنزانة، أمر شادي الحارس بفتح الزنزانة، لم يبدو عليها أنها أحست بقدوم أحد، فلم تتحرك من مكانها، فاقترب منها شادي بهدوء، وجلس على الفراش الهزيل بالقرب منها وظل هكذا لثوانٍ يراقبها في هدوء قبل أن تقول هي:

- ما الذى أتى بك إلى هنا أيها الأمير ؟

لم يتعجب شادي من جفائها ولا كبريائها في الحديث فلقد اعتاد عليهما، فقال بلا تفكير:

- لأطمئن عليك.

ومن جديد عم الصمت، لم يكن شادي يرغب في أن يقطعه، بل إنه تعجب من كونه لايمانع بقاءه هكذا. .

كانت ثابتة أمامه وقد بدا واضحًا لشادي أنها تحاول أن تتماسك وألاتنهار، وقد انسابت خصلات شعرها الأسود الليلي على ظهرها في

تموجات خفيفة، لم يكن شادي يعلم ما الذي يجذبه هكذا للتحديق في شعرها، ولكنه كان مستمتعًا بهذا.

وأخيرًا قطعت الأميرة الصمت قائلة من جديد:

- ما الذي قرره الحاكم بشأني؟

كان هذا هو السؤال الذى يرغب شاديفي معرفة إجابته، فقال بصدق:

- لا أعلم.

ومن ثم قام واقفًا واقترب منها وانحنى ليهمس بجوار أذنها:

- أيًا كان السبب الذي جعلك تتوقفين أمام شعبان، سأجعلك تخرجين من هنا.

واستدار وغادر الزنزانة دون أن يلتفت للوارء، لم يكن يعرف السبب وراء كلماته، ولكنها كانت ما يدور في عقله، وما نوى فعله، وما سيبذل الوقت في سبيله.

توجه إلى قاعة الحكم، كان الحاكم في انتظاره، وقبل أن يستطيع سؤاله عن شهندا بادره الحاكم قائلاً:

- لقد عاود الحاكم المنصور هجومه من جديد على القبائل الساسونية، والذين سلموا بدورهم جزءًا كبيرًا من أراضيهم للمنصور.

آخر ما كان يوده شادي الآن هو أن ينشغل بأمر المنصور هذا، فقال:

- وما أحوال حدودنا؟

- لقد أرسل لنا القائد قاسم يطمئننا على الحدود، ولكن المنصور هاجم الساسونين بعد علمه أننا نناصرهم.

فقاطعه شادي متابعًا:

- أى أنه يحاربنا نحن الآن.

جلس شادي على مقعده المجاور للحاكم حين دخل الوزير نوار الذي حياهم، ثم قال:

- مولاي الحاكم، هناك رسول من القائد وهدان.

ومن ثم دخل رسول وهدان وهو يقول:

- مولاي الحاكم، إن القائد وهدان يرغب في أن يطلعكم على وجود قوات من مدينة كوكب الأبيض و الأسود وصلت اليوم عند حدود المدينة الغربية، وأن المنصور أرسل رسوله إلى الساسونين يخبرهم أن مدينة كوكب الأبيض و الأسود تناصره في حربه ضدهم، وأنه ينصحهم بتسليم أرضهم، وأنه لن يمسهم.

بدا الانفعال على الحاكم، بينما شرد شادي، لا يوجد سوى معنى واحد لرسول المنصور للساسونين، فقال شادي بغضب موجهًا كلامه للحاكم:

- إن المنصور يريدنا أن نعلم، أن نعرف أن كوكب الأبيض و الأسود معه ضدنا.

ومن ثم نظر إلى نوار الذي بدا عليه أنه يوافقه الرأى، حين قال الحاكم لنوار:

- نوار أرشد الرسول إلى المبنى الملحق ليستريح من الرحلة، ثم يعود إلى وهدان ويخبره أن جيش العاصمة سيلحق به.

فأومأ نوار وانصرف في حين قال شادي للحاكم:

- والدي هل تفكر فيما أفكر فيه؟

فبدا على الحاكم التفكير، في حين قال شادي من جديد:

- سأنصرف أنا الآن، هناك أمر على القيام به.

وقبل أن يتحدث الحاكم كان شادي قد قام متوجهًا إلى زنزانة شهندا، والتى كانت تجلس كما تركها، دخل شادي وهو يقول لها:

- أيتها الأميرة، هناك بعض الأمور التى أود معرفتها منك؟

وجلس وهو يتابع:

- هل كنت تشاركين في أمور الحكم؟

نظرت له شهندا بتعجب، ولم تجبه، في حين تابع وهو محاولاً السيطرة على أعصابه:

- اسمعيني، إنك على وشك أن تتورطي في قضيةكبيرة، وكما سبق وأخبرتك لا شأن لى هنا سوى رغبتي في مساعدتك.

وقام واقفًا ومن ثم تابع هامسًا:

- فكري فيما قلته.

وغادر الزنزانة، كان يحتاج إلى التفكير، يحتاج إلى تجميع أفكاره، لقد كان واثقًا أن كل ما يحدث مترابط بشكل ما، وإن كان مقتنعًا ببرائة

شهندا، ففى الحقيقة لا يوجد أمامه سوى شئ واحد لم يكن متيقن منه بعد.

كان يريد الانفراد بنفسه، فصعد إلى غرفته متجنبًا مقابلة أى أحد.

وما إن أصبح داخل غرفته حتى جلس فوق فراشه يفكر في كل ما حدث، لقد انضم جيش كوكب الأبيض و الأسود لصف المنصور، في ذات الوقت تظهر فتاة من الجنوب تحاول قتل الحاكم يكتشف فيما بعد أنها ولية عهد المدينة.

تسعة عشر عامًا من الهدوء، تسعة عشر عامًا لم يعكر صفوها سوى بعض المحاولات من المنصور المستميتة لضم أراضي الساسونين إلى أرضه، والتى لم تكن تتخطى عرض التهديدات ورسل تنتهي بالتفاوض.

لم يشعر شادي بالرغبةفي النوم، فقرر النزول والتجول قليلا في حديقة القلعة ، لعل الهواء المنعش للمساء يجعله قادر على التفكير بشكل أفضل.

كانت الحديقة هادئة، سار قليلا وسط الزرع الأخضر، ثم جلس فوق أحد المقاعد وهو ينظر إلى السماء مفكرًا حين تذكر الدعوة التى وصلته من سامي الخباز من إقليم وادي الحياة التي دعاه فيها لحضور زفاف أخيه الأكبر، شعر بالرغبة في الذهاب، ستكون فرصة جيدة ليستطيع تصفية عقله، فقد شعر أنه في أمس الحاجة لشئ طبيعي، شئ لا يحمل طابع المسئولية الملقاة على عاتقه منذ ولد.

شعر بشخص يقترب منه، استدار مسرعًا ليجد نوار يقف خلفه، لم يتفاجأ فقد كان يتوقع أن يأتى نوار فهو الوحيد الآن الذي يعرف أين يجلس شادي حين يشعر بالضيق، والحاجة للتفكير.

نظر له شادي مبتسمًا، في حين جلس نوار وهو يقول:

- لقد قلق الحاكم لأنك لم تعد منذ تركته بلا تفسير لما تفعله؟

فأخذ شادي نفسًا عميقًا ومن ثم نظر إلىنوار ولم يجد ما يقوله، فقال نوار:

- هل تعلم في أى يوم نحن؟

وعندما بدا على شادي عدم الفهم، تابع نوار وهو ينظر إلى السماء:

- اليوم الذكرى السنوية لوفاة نعمان.

ظهر التألم على شادي، كيف ينسى يومًا كهذا، منذ خمس سنوات لم ينس هذا اليوم أبدًا، حين تابع نوار بصوت خافت:

- تعجبت عندما لم تتذكر فرأيت أنه من المهم أن أذكرك.

تعاظم الشعور بالضيق داخله، إلى أي مدى ستأسره تلك السجينة في سجن القلعة ، لقد كان نعمان هو معلم شادي الخاص، الشخص الذى علمه كل شئ في حياته الآن، كان شيخا كبير السن بارع في الفلسفة والعلوم الإنسانية، وكان مصدر الإجابات التي كان شادي يحتاج إليها في أى وقت.

فنظر إلى السماء وهو يفكر في نسيانه لهذا اليوم معتذرًا ومتسائلاً لو كان نعمان لايزال على قيد الحياة ماذا سيكون رأيه في سجينة القلعة تلك؟

وتذكر ذات يوم كان عمر شادي لم يتجاوز الرابعة عشر، كان يجلس في قاعة الدرس في الطابق الثانى من القلعة ، حين قال له نعمان " لا تحكم رأيك في كل الأحوال وكذلك لا تحكم قلبك، فإن حكمت قلبك في كل الأحوال فقدت الحكمة، وإن حكمت عقلك في كل الأحوال فقدت إنسانيتك "

تذكرها وكأنه يقولها له الآن ،وشعر كأن معناها اليوم أكثر وضوحًا مائة مرة من قبل، وكان نعمان يقولها له اليوم ردًا له على سؤاله عن شهندا.

* * *

(12)

زفاف شادي

لم يحضر شادي أي حفلات زفاف من قبل، الحفلة الوحيدة التى حضرها حضرها كضيف شرف في مدينة الزمرد ليحل محل الحاكم ، ولم تكن أى شئ كتلك الحفلة.

أول ما شعر به شادي هو البهجة والسعادة التى كانت منتشرة في الهواء، كان زهران إلى جواره يقدمه إلى مجموعة من الشباب لم يعرف منهم شادي أحدا.

كانوا يقفون في ساحة منزل كبيرة جداً مجموعة من الرجال فقط، بينما كانت العروس مع صديقاتها في الطابق العلوي وقد استطاعوا سماع أصواتهم من وقت إلى آخر، أخذ شادي يتأمل المكان من حوله وهو سعيد أنه وافق على مرافقه زهران لهذا الحفل، حين اقترب منهم سامي الخباز، وقد كان شابًا طويل القامة أسمر البشرة ذا وجه خشن الملامح إن كان مرحًا جدًا، حيا شادي بحرارة قائلاً:

- كنت أخشى ألا تأتى.

وحيا زهران، ثم تابع:

- تعالا معي لتحيا العريس بنفسيكما.

وسار وتبعه كلا من شادي وزهران، كان العريس يجلس وسط مجموعة من الشباب الضاحك وما أن اقتربوا منهم حتى قال سامي:

- هناك من يود إلقاء التحية عليك أيها العريس.

فالتفت إليه شاب متوسط القامة له أنف حاد وأعين غائرة، كان شكله مألوفًا لشادي عن كل من قابلهم في الحفل، ابتسم الشاب لزهران وهو يقول:

- زهران العطار.

وقام واقفًا وعانق زهران بقوة، وقال زهران له:

- لقد كبرت يا شادي، وها أنت تتزوج.

فضحك وهو ينظر إلى شادي حين قال سامي له:

- شعبان، هذا شادي أخى.

فصافحه شادي وجلس معهم، كانوا مجموعة من الشباب المرح، أخذوا يمرحون ويمازحون العريس ومن حين لآخر ينشدون بعض الأغانى.

ومر الوقت ومن ثم انتقل العريس شادي للجلوس على طاولة أخرى مع والد العروس وشيخ ذي لحية بيضاء كبير السن، وأخذوا يتبادلون عهود الزواج، ومن ثم ارتفعت أصوات الفرحة والتهنئة من الطابق العلوي حيث العروس وصديقاتها، وانطلق الشباب لتهنئة العريس.

وبعد انصراف الشيخ، دخل الطعام، صفح كبير مليئة باللحم والأرز، تجمع الجميع حولها لتناول الطعام.

وبعدما انتهى تناول الطعام، دخل رجل قصير القامة يرتدي عباءة خضراء اقترب من العريس، بينما عم الصمت وبدى ان أحدا لم يكن يعرف من هو، إلا أن الرجل أمسك بيد شادي– العريس – وقال له:

- ستكافأك الأيام بصبرك

وسيكون مردك لأهلك

والسلطان العظيم ملكك

وذوي الشأن العظيم من نسلك.

تفاجأ شادي، فقد بدا له كلمات الرجل وكأنها نبوءات أحد من قبائل بنى الميمارق، ولكن تلك القبيلة لا تقدم نبوءاتها هكذا، وليس لعامة الشعب على حد علمه، فمال شادي على صديقه زهران سائلاً إياه:

- ماذا كان هذا؟

ضحك زهران وقال:

- لا بد أن هذا كلفهم ثروة، إنه مؤدى، أصبحت تلك عادة شائعة، أن يقوم أحد المؤدين بتقليد قبائل الميمارق وتقديم النبوءات في الأعراس.

وقبل أن يتكلم شادي اقترب منه الرجل صاحب النبوءة وقال له:

- ستتحقق النبوءة ولو بعد حين، ستتحقق ولو بعد حين.

، ثم استدار وغادرهم غير مكترث للمطالبات بسماع النبوءات التى تكاثرت من بين الحضور، بينما قال زهران ضاحكًا:

- عليك إذن ألا تقلق.

فضحك شادي مشاركًا صديقه الضحك، بينما خرج سامي لدقائق عاد بعدها ومعه شخص آخر شديد الشبه بصاحب النبوءات، يرتدي ذات الملابس وقال:

- من منكم يود سماع نبوءته.

فتقدم الشباب من سامي ومن معه يتمازحون ويسمعون نبوءات من قبيل " ستتزوج العام المقبل " " تجارتك هذا العام ستتفوق عن العام الماضى " وتعالت الضحكات والمزاح بين الجميع.

بالرغم من أن شادي قد قضى عامين في السوق، إلا أنه حتى اليوم لم يقض يومًا طبيعيًا كهذا، لم يشعر من قبل أنه واحد من عامة الشعب كما شعر في هذا اليوم، كان يجلس بجوار سامي وأخيه العريس، كان شادي– أخو سامي الخباز – شخصية مرحه ومحببة للقلب، يعمل

مزارعا في أحد الحقول، شعر شادي معه وكأنه يعرفه من قبل، لم يجد صعوبةفي التحدث إليه والمزاح معه وكأنه اعتاد منذ زمن الجلوس معه.

كان الوقت قد تأخر كثيرًا حين قام زهران وحى العريس وفعل شادي مثله وانصرفا، وما أن خرجا حتى قال زهران موجهًا كلامه لشادي:

- ما رأيك في الحفل؟

فأجابه شادي وهو لايزال محاطًا بجو من البهجة:

- رائع، إنه حفل رائع يا زهران، بارك الله لشادي في زفافه.

فابتسم زهران وقال:

- أتمنى أن يكون حفلك هو التالي.

ودون أن يشعر وقبل أن يجيب زهران ذهب تفكيره في لحظة إلى الأسيرة في القلعة ، لم يعرف لما انتقلت أفكاره لها الآن، ولكنه وجد نفسه يرغب في العودة إلى العاصمة، إلى الذهاب إلى القلعة ، إلى العودة إلى واجباته التى حاول الهرب منها هنا.

شعر زهران بشرود صاحبه، فقال متسائلا:

- فيما شردت؟

أعاد صوت زهران شادي للواقع، فنظر له ولكن لم يتحدث، في حين أضاف زهران:

- سنبيت ليلتنا هنا ونعود في الصباح، أنا لا أحب السفر ليلاً.

وسار بصمت حتى وصلا إلى خان صغير استأجر فيها زهران غرفة ليبيتا ليلتهما، كانت غرفة بسيطة جدًا ذكرت شادي بزنازين القلعة ، فقد كانت حوائطها متهالكة، بها فراشان من الخشب وغطائان من القماش المهترئ، وطاولة صغيرة، تأمل شادي الغرفة من حوله حين قال زهران:

- أعلم أنها سيئة ولكن ما معي من مال لن يكفي سوى لمثل تلك الغرفة.

شعر شادي بالحرج الشديد، فلم يكن معتاد على التعاملات المادية ونسي أن رفيقه من المؤكد دفع الكثير من المال في تلك الرحلة، فأخرج بعض العملات التي كان يحملها معه وهو يقول:

- تفضل يا زهران.. يالي من أحمق، لم أساهم معك بأي شئ.

ولكن زهران ضحك وهو يخلع عباءة السفر ويقول:

- أنا لم أقل هذا لتخرج لى مالك يا ولد. .. يجب عليك أن تقتصد أن أردت الزواج.

وضحك من جديد وهو يغمز لشادي، واستلقى فوق أحد الفراشين، ففعل شادي مثله وسرح بخياله يفكر في بساطة الحياة وسط العامة، وكيف هو الشعور بعيدًا عن كل تلك المسؤليات الملقاة على عاتقه، كان يراقب حشرة صغيرة في سقف الغرفة تدور حول نفسها وتدخل وتخرج من ثقب صغير حين عم الهدوء وأخذت الأفكار تغزو عقله، وعاد ليفكر فيها من جديد.

قاطع زهران أفكاره، فقد قال دون أن يعتدل:

- هل سمعت تلك الشائعات المنتشرة هذه الأيام؟ يقال أن الحاكم نور الدين قد ورط المدينة في حرب ضد كوكب الأبيض و الأسود.

شعر شادي في بادئ الأمر بالدهشة، فلم يكن على دراية بأن العامة قد علموا بالأمر، ولكنه قال بهدوء:

- سمعت أمرا كهذا.

فتابع زهران، وكأنه لم يسمع شادي:

- نشرت تلك الإشاعة حالة من الذعر، الكل يتحدون على عدم مقدرة المدينة لمحاربة كوكب الأبيض و الأسود، وأن حربًا كهذه سيكون نتائجها سيئة.

- لا أظن هذا يازهران، إن جيش مدينتنا أقوى جيش عرفته الجزيرة، لا يضاهيه سوى جيش المملكة القديمة.

اعتدل زهران ونظر إلشادي وقال:

- ولكن يا شعبان، هل تظن حقًا أن تقوم حرب أخرى بيننا؟

شرد شادي لثواني قبل أن يجب صديقه:

- لا أتمنى هذا، لسنا فيحاجة إلى حروب مع الجنوب في الوقت الحالي.

توجه شادي مباشرة إلى قاعة الحكم ما أن وصل إلى القلعة في صباح اليوم التالي، كان الحاكم هناك حياة شادي ومن ثم قال:

- والدي لقد تسربت أخبار عن حرب متوقعة بيننا وبين كوكب الأبيض و الأسود ،وقد نشر هذا الأمر حالة من الذعر في المدينة.

ظهر الضيق على الحاكم وهو يقول:

- لقد تحركت جماعة من الرماة والفرسان للغرب مع قائد الجيش اليوم، إن الأخبار مطمئنة من الغرب، حتى الآن لم يقو أى من جيشي المنصور أو كوكب الأبيض و الأسود بأي حركة.

- وماذا عن الساسونين؟

- هم الآن محاصرون داخل أرضهم، ولكننا لن نبدأ بالهجوم.

وعم الصمت لثوانٍ قاطعه الحاكم قائلا بتردد:

- عن سجينةالقلعة. ..

نظر شادي لوالده بقلق، حين تابع الحاكم ببطء:

- حسنًا، بعد أن تأكدنا من أنها الأميرة شهندا حمدان، وفي ظل الظروف الراهنة علينا أن نستغل تلك الفرصة، ولا تنسى أن ما يحدث الآن ما هو إلا دليلا أنها طرفا فيما يحدث.

ظل شادي ينظر إلى والده لبرهة لا يجد ما يقوله، وأخيرا قال متسائلا:

- وماذا تعنى بنستغل الفرصة؟

بدت ملامح الحاكم شديدة الجدية وهو يقول:

- سنعلن أننا أسرنا الأميرة ونساوم جواد عليها.

لم يترك شادي والده يتابع، بل تابع هو قبل أن يستطيع أن يوقف نفسه:

- ومن ثم تقتلها في أسرها كما فعلت بوالدتها.

طوال العشرين سنة التى عاشها شادي لم ير الحاكم غاضبًا بتلك الطريقة، فقد نظر إليه وقد ظهر عرقًا نابضًا في مقدمة وجهه، وقال بحدة:

- لقد تجاوزت حدودك أيها الأمير ، وأمور المدينة ليست شيئًا تحكم فيه أنت، لا أزال أنا الحاكم نور الدين.

لم يرغب شادي في التشاحن مع والده، لهذا انحنى له، وخرج من القاعة متوجهًا للمكان الوحيد الذى رغب التواجد فيه الآن.

لم يكن يعرف تحديدًا ما هو سبب غضبه وضيقه، ولكن فكرة أن يعلن للناس عن وجودها في الأسر، وأن تتم المساومة بها في تلك المعركة بدت له فكرة مذلة جدًا، وشعر أنها لا تستحق ذلك مهما كان الأمر ، لا يجب أن تتحمل هذا العار.

وماذا لو يقبل جواد بالمساومة كما فعل مع والدتها، هل سيكون مصيرها الموت؟ ولكنه توقف، ماذا لو كانت فعلا طرف في تلك المعركة وما وجودها هنا سوى جزء من خطة كبيرة، ماذا لو كان كل ما يشعر به تجاهها ورغبته في تحريرها من أسرها ما هو إلا شعور غير مسئول، إنه أمير، عليه أن يتخذ القرار الصحيح.

وتذكر أين كان في الأمس، وكيف كان حرًا بعيدًا عن كل تلك المشاكل والمسئوليات، وتراءت له صورة شادي أخو سامي الخباز، وللحظة شعر أنه مستعدًا لفعل أى شئ ليبادل حياته معه، لأن يعيش بعيدًا عن كل هذا.

* * *

obeikan.com

obeikan.com

(13)

الأحجار الستة

توجه شادي للزنازين وقد اعتزم أمرا واحدا، سيعرف منها الحقيقة، لماذا أتت؟ وما الذي تعرفه عن ما يفعله جواد؟ كان يريد أن يخرج من عندها وهو واثق، وهو يعرف ما عليه فعله.

كانت كالعادة تجلس فوق الأرض رافضة استخدام أى شئ داخل الزنزانة، أمر الحارس بفتح الباب ثم دخل، لم تستدر له وكأنها لم تشعر به، ظل جالسًا لثوانٍ يجمع أفكاره، ويرتب ما سيقوله، ثم قال:

- هل فكرت في كلامي؟

لم تجبه، وظلت تحدق في النافذة في سقف الزنزانة، فتابع محاولاً الحفاظ على هدوئه:

- هل تعرفين أننا في حالة حرب الآن، وخمني مع من؟ مع مدينة كوكب الأبيض و الأسود.

لم يستطع منع التهكم من صوته، في حين استدارت له بحدة وقد بدت متفاجئة ومصدومة:

- ماذا؟

هنا قام واقفًا وقال وكأنه لم يسمعها:

- أعتقد أنك الآن كولية عهد، تعلمين ما الذي يعنيه هذا؟ وما الذي يعنيه وجودك هنا، وتعرفين ما الذي يفكر فيه الحاكم.

قامت واقفة، ولكن شادي لم يستدر لها، وعم الصمت لثوانٍ، وقد شعر شادي بتوترها وترددها، حينها التفت ليدرس تصرفها جيدًا، ليحلل ما يعنيه، فلقد كان في أشد الحاجة لأن يفهمها الآن عن أى وقت مضى، كانت تنظر للأرض تعض على شفتيها الصغيرة بضيق، واستطاع شادي أن يرى دمعة تسقط من عينيها على الأرض الحجريه للزنزانة ، ظلت ثابتة لثوانٍ، يراقبها شادي وهي تكافح لمنع دموعها،

وأخيرًا اعتدلت، كانت عيناها مملوءة بالدموع تماما كاليوم الذي أخبرته فيه أن والدتها لم تمت في الحرب، ولكن تلك المرة كان هناك شئ آخر في عينيها غير الدموع، لقد كان الكبرياء والعجرفة التي امتلأ وجهها بهما منذ رآها قد اختفيا، وحل محلهما الحزن، الألم، الذل.

كره شادي ما رآها في عينيها، فبقدر ما كان يكره عجرفتها وكبرياءها، إلا أن رؤيتها بهذا الانكسار كانت أكثر مما يتحمله، فقال بهدوء وإن لم يتخلص من حيرته وغضبه:

- أعتقد أنك على دراية بمعنى ما قلته إذا؟

استدارت ومسحت عينيها ومن ثم قالت بصوت قوي لا يتناسب مع حالتها:

- ما الذي تعنيه بأنكم في حالة حرب؟

كان الصراع قويًا داخل شادي، كان جزء منه يريد أن يصدق أنها كانت في المكان الخطأ، أن هناك حلقة مفقودة تظهر براءتها، والجزء الآخر منه يحثه على التصرف بمسئولية، أن يتصرف كما عليه كأمير وولي عهد أن يتصرف، ألا يبوح لها بما يحدث، أن يخرج من عندها ويعود إلى والده وينفذ ما قاله له، كان هذا الصراع يضغط عليه بقوة، لهذا لم يستطع الحفاظ على صوته، بل قال بغضب:

- أعنى أن جواد قد أخرج جيوشه لمحاربتنا، وعلى ما أعتقد كان هذا بناء على خطتك أو خطتكما معًا.

ظل يحدق في شعرها المسترسل أمامه، منتظرًا منها أن تتحدث، أن تقول شيئًا، وأخيرًا قالت بهدوء:

- لم أكن أعرف شيئًا عن هذا.

- ولكنك على الأقل تعرفين ما يعنيه هذا، تعرفين ما هو موقفي الآن، تعرفين كيف يفكر الحاكم، وما يتحتم عليه الوضع.

كان هناك يريد أن يقول لها أنه يريد المساعدة، أنه غير موافق على كل ما تفرضه الظروف، على أنه يعرف أنها غير مسئولة عما يحدث، ولكنها قالت بهدوء شديد:

- لا.

حدق فيها بدهشة محاولاً فهم معنى ما قالته، ما الذي تقول عليه " لا "؟ ما الذى تعنيه؟ حين استدارت وقد استعادت جزء من قوتها السابقة، وإن ظل هناك أثر للألم والذل في عينيها:

- لا لا أعرف ما الذى يعنيه هذا؟ لا أعرف ما الذي يخطط له جواد، لا أعرف ما معنى موقفي، أو ما يحتمه الأمر على الحاكم، لا أعرف حتى ما هو القانون الذي ستسخدمونه ضدي.

ومن ثم نظرت في عيني شادي، الذي حاول جاهدًا ألا تأسرانه كما تفعلان دائمًا، وقالت مؤكدة على كلامها:

- نعم لا أعرف شئ، لا أعرف أكثر من أنني أميرة مدينة كوكب الأبيض و الأسود، ابنة الحاكم حمدان والحاكمة يولاندا، أعرف أن والدك قتل والدتي وهي في الأسر وتستر على الأمر حتى أنى لا أعرف أين دفنت أمى وكأنها لم تكن، أعرف أن هذا فعل خاطئ، وكان يجب إدانة والدك، أعرف أن جواد استغل مكانتي ومكانته عندي، ولكني لا أعرف أحدا غيره.

كانت الدموع تتساقط من عينيها وهي تتحدث، ولكن قوة كلامها لم تتأثر ولو للحظة، كانت تتحدث بقوة بصدق، بينما كانت دموعها تتساقط رغمًا عنها، لم تلتفت إليها

أو تحاول منعها، بل تركتها تنساب من عينيها، بينما جعلت كل تركيزها ألا تضعف قوتها، ألا تفقد الجزء المتبقي من كبرياءها من عزتها.

ظل شادي ينظر في عينيها الدامعتين، كانت عيناها صادقة، كان يشعر أن بإمكانه أن يرى الصدق في صفائهما وفي نقائهما، كان يرى أنه محق، وأن تصديقه لها لا يعارض أبدًا مهمته كولي عهد.

أخيرًا قال شادي بهدوء وقد استطاع أن يهدئ من الصراع داخله:

- هل يمكنك أن تخبريني بكل شئ؟

لم يكن يعرف شادي كيف تجعل من عينيها دليلا قاطعًا على كلامها، كيف يجعل الصدق والصفاء يشع منهما، ولكنه حدق في عينيها، محاولاً أن يجعلها ترى أنه صادق في رغبته في المساعدة، أنه يرغب أن يعرف لا لأن يذلها، بل لأن يعيد إليها كرامتها، أن يعيد إليها مكانتها.

جلس شادي على الفراش الخشبي المتهالك خلفه، وقد أصبح غير قادر على التماسك وقال:

- أريد أن أعرف كل شئ عن جواد، أريد أن أعرف كيف أتيت إلى هنا، بلا حرس ولا جنود، أريد أن أعرف كيف يحاربنا جواد وهو يعرف أنك هنا، أريد أن أعرف إن كنت تعرفين من أنا عندما وقفت أمامي في السوق، أم كان الأمر مجرد مصادفة.

جلست شهندا بدورها على المقعد الخشبي وقد بدت أكثر هشاشة من قبل وقالت وهي تحاول جاهدة أن تظل محافظة على قوتها:

- جواد هو من رباني، هو من أهتم بي طوال العشرين عامًا الماضية، لم يكن لى أحد غيره، بعد أن قتلت أمي وأنا لا أزال في المهد، هو من تولى كل أموري.

لم يكن شادي متوقعًا أن تتحدث فعلا، أن تجيبه، لهذا نظر إليها بعدم تصديق، ولكنه سريعًا تدارك الأمر وقال:

- كيف اقنعك أن تأتى إلى هنا، أن تنتقمي لأمك؟

ضحكت ضحكة حزينة، كانت أكثر ما سمع شادي في حياته بهذا الحزن، وقالت:

- ألم تفهم بعد أيها الأمير ، لقد استغل الفرصة جيدًا، بعد ثلاثة أيام سأتم عامي الواحد والعشرين، مما يعنى أن أتولى عرش مدينتي، بعد ثلاثة أيام ولأول مرة منذ عشرين عامًا سيعود جواد ليكون الرجل الثاني بعد أن اعتاد أن يكون الرجل الأول.

اتضحت الصورة أكثر لشادي أثر كلمات شهندا، وبدا الأمر معقولا، حين تابعت هي:

- كانت خطته تقتضي بمجيئي هنا لقتل الحاكم، وإن لم أستطع سيكون كافيًا أن أبث الارتباك في القلعة ، حين يلحق بي هو، ليخلصني، ولكن ها أنا، في أسري وها هو يقوم بحربه الخاصة ليحقق أغراضه.

نظر لها شادي بجدية وقد بدأ يشعر بالسعادة لاقترابه من براءتها، وقال:

- لقد أعلن وقوفه إلى صفوف الملك المنصور بعد أن علم أننا نناصر الساسونين، إنه يرغب في أن يقوم الحاكم نور بالتعدي على المعاهدة أولاً ومن ثم يقوم هو بضربته.

بدا وجه شهندا مليئًا بالحزم، ونظرت إلى شادي وعلى وجهها شبح ابتسامة حزينة:

- هل ستصدقني أيها الأمير إن أخبرتك أنني لا أعرف عن أي معاهدة تتحدث، أو حتى ما هم الساسونين، ومن هو الحاكم المنصور؟

شعر شادي بالتعجب وقال:

- ألا تعرفين شيئًا عن المعاهدة التى وقع عليها ملوك الجزيرة بعد الحرب الأخيرة بين الجنوب وبيننا، بعد مقتل والدتك؟

هزت شهندا رأسها بأسى، في حين تابع شادي بغضب:

- هذه جريمة، لقد سرق عرشك، لقد اخترق حدود وصايته عليك.

لم تجبه شهندا، وعم الصمت لثواني، بعدها تكلم شادي من جديد:

- هل عندك أى علم بما يريده جواد، بخلاف عرشك؟

بدى التردد على شهندا، ومن ثم قالت:

- منذ سنوات كان يبحث عن الأحجار الستة، ولكنه توقف، سمعت أنه توصل إلى أن تلك الأحجار ما هي إلا خرافة.

لم يفهم شادي عم تتحدث، فلم يسمع من قبل عن شئ باسم الأحجار الستة، فنظر إليها مستفهمًا وهو يقول:

- ما هي تلك الأحجار؟

بدى التفكير عليها وهي تقول

- لا أعرف عنها سوي أنها شئ ذا طاقة كبيرة، لا أعرف شئ آخر، جزء من أساطير الجزيرة التي تحكيها المربيات ليلا.

فأخذ شادي يفكر ماذا قد تكون تلك الأحجار الستة، وما الذى تعنيه، وما معنى أنها تحوي طاقة كبيرة.

* * *

obeikan.com

obeikan.com

١٠٢

كل الأمور تتشابك

كان شادي يجلس في غرفة الدرس القديمة التى لم يدخلها منذ وفاة نعمان، كان يبحث بين الكتب عن أي شئ له علاقة بالأحجار الستة، فكر في سؤال والده، ولكنه تراجع، ففي الوقت الحالي لم يكن هو ووالده على وفاق، فلا يزال والده يريد أن يعلن عن أمر شهندا

ويساوم جواد عليها، وكان شادي واثقًا مما سيفعله جواد إن ساومه الحاكم نور على شهندا، سيتركها كما فعل مع والدتها من قبل.

لم يكن شادي قد تحدث مع والده منذ زيارته الأخيرة لشهندا، ولكنه عرف من نوار أنه يرغب في ارسال شادي مع الجيش إن حدث أي شئ عند الحدود الغربية للمدينة.

فحتى الآن الأمور هادئة، لم يقم المنصور أو جنود جواد بمهاجمة الساسونين بعد، بل اكتفوا بحصارهم في انتظار تدخل الحاكم نور.

شعر شادي بالإعياء خاصة أنه لم يجد أى شئ يدل على تلك الأحجار، أو حتى أى أحجار تمتلك قوة، لقد كان يبحث منذ ترك شهندا، ترك الكتب من يديه وظل يحدق في سقف الغرفة، ويفكر، هل كان نعمان يعرف ما هية تلك الأحجار؟ أم أنه لايوجد شئ بهذا الاسم؟

سمع طرقات على الباب، تلاها دخول نوار، الذي ابتسم لشادي وقال:

- عرفت من الخدم أنك هنا، لقد توقعت هذا.

تعجب شادي، هل عرف نوار بأمر حديثه مع شهندا؟ ولكن كيف، فتسائل:

- لماذا؟

فقال نواروبتعجب وكأنه يقول شئ شديد الوضوح:

- فكرت في أنك ستود التواجد هنا لذكرى نعمان.

فابتسم شادي، في حين تابع نوار:

- إن الحاكم يبحث عنك

شعر شادي بالتوتر، هل هاجمهم جواد والمنصور بتلك السرعة، لم يرد أن يغادر القلعة في الوقت الحاليقبل أن يفهم ما هي تلك الأحجار، فقال لنوار:

- هل سمعت من قبل عن شئ يطلق عليه الأحجار الستة؟

ظهرت الدهشة على نوار، وظل ينظر إلى شادي مطولا، ومن ثم ابتسم وقال:

- هل هذا سبب تواجدك هنا؟

فأومأ له شادي بالإيجاب، فتابع نوار:

- لا يمكننى أن أقول أى شيء عنها، أمور لا تخصني، كما أنك لن تجد شئ هنا.

فكاد شادي أن يجادل نوار، الذي منعه وقال:

- الحاكم يريد رؤيتك.

واستدار وغادر الغرفة دون أن يترك لشادي فرصة ليتكلم، تركه غارقًا في مزيد من التساؤلات، فقد كان رد نوار دليلا قاطع على أنها شئ حقيقى، ولكن لماذا لم يخبره ما هو؟ وما الذى عناه بأنه لا يستطيع قول شئ عنها.

قام وقرر سؤال والده، فلابد أنه سيعرف شيئا عنها.

كان الحاكم نور الدين يجلس مع أحد قادة الجيش، والأمير جاسم، وما إن دخل شادي حتى قام القائد وحيا الحاكم وانصرف، فحيا شادي والده وظل واقفًا لا يعلم ما يقوله، حتى قال الحاكم:

- لم يقم المنصور بأي هجوم، ولكن الوزير جواد وصل للمدينة الغربية اليوم، ستنطلق مع مجموعة من الجيش إلى الحدود الغربية الآن، أريد أن يكون كل شئ تحت نظركم، وأريدك أن تكون على استعداد في أي وقت.

فانحنى شادي وحيا والده وانصرف، لم يعرف كيف يذكر أمر الأحجار الستة أمام والده دون أن يذكر شهندا، ولم يكن يرغب في أن يعيد فتح أمرها معه، كما أنه لم يشعر بالراحة للحديث في هذا الشأن أمام عمه الأمير جاسم.

عاد شادي لغرفته، بالرغم من أنه منذ عاد من سفره من إقليم وادي الحياة لم يرتاح إلا أنه لم يشعر بالإرهاق الجسدي بقدر ما كان يشعر بالإعياء الذهني.

دخل لغرفته، وجلس فوق مقعد منجد بجوار النافذة التي تطل على الحديقة الأمامية للقلعة ، وظل يراقب الحركة في الحديقة لبضع الوقت، ولكن الأفكار أبت أن تتركه، فقد ظل يفكر فيما قد يكون معنى ما قالته شهندا عن تلك الأحجار، وأنها من الأساطير الخاصة بالجزيرة فهو لم يسمع بها، وما الذي كان يهم جواد بها، وهل لايزال مهتم بها.

ومن ثم سرحت أفكاره لتعود للزنزانة ، ما الذي تفعله شهندا الأن؟ من المؤكد أنها تجلس على الأرض ، لا بد أنها تشعر بالخوف، لا بد أنها لاتزال تدمع، ولا تزال تلك النظرات الحزينة تكسو وجهها الناعم.

لم تستطع تحمل أفكاره أكثر، فقام وغادر غرفته من جديد، نزل إلى الحديقة وقد علم ما الذي سيريح أفكاره، سيهدأ من نفسه ليكون قادر على التفكير السليم.

توجه إلى الإسطبل، حيث يوجد حصانه رماح، كان الحصان الأبيض يقف في مكانه وقد بدت عليه القوة، اقترب منه شادي وربت على رقبته وهو يقول

- كيف حالك يا رماح؟ لقد انشغلت عنك.. اعتذر منك.

فحمحم الحصان وهو يهز ذيله، وحرك رأسه للجهةالأخرى، فظل شادي يربت على رقبته وهو يتابع:

- أعلم أنك غاضب مني؟ ولكن ألا ترى ما أمر به

وأخذ يربت على ظهر رماح وعلى رقبته وهو يفكر، لقد مر وقت طويل على نزوله للإسطبل وكيف كان من قبل لا يكف عن امتطاء رماح والعدو به بعيدًا، فقال له من جديد:

- ما رأيك أن نقوم برحلة كرحلاتنا السابقة؟

وامتطى ظهر الحصان وانطلقا، كان واضحًا على رماح اشتياقه للعدو، للانطلاق كشوق شادي له، كان لتأثير الرياح على وجه شادي مفعولا قويًا، فلقد استطاع أن يبتعد أن يبتعد عن أفكاره التي تحاصره،

وشعر وكأنه هو ورماح أصبحا شخص واحدا، شخصًا منطلقًا بكل قوته متحديًا المكان والزمان.

لم يشعر شادي بالوقت، وحين شعر بالشمس تختفي في الأفق قرر العودة، كان سعيدًا، فقد كان خلال عدوه وانطلاقه على ظهر رماح قد استطاع تصفية عقله تماما، استطاع أن يهدأ وأن يستعيد جزءًا من هدوئه ونشاطه.

وضع رماح في الإسطبل وربت على ظهره، وقال:

- كانت جولة رائعة يا رماح، استرح جيدًا لأننا قد نسافر في الصباح.

وقبل أن يغادر الإسطبل رأى حصان صديقه قاسم، فقد كان يعرف حصانه جيدًا دونًا عن كل الخيول فيالإسطبل، فقد كان فائز – حصان قاسم – هو توأم حصانه رماح، فقد ولدا معا فى ذات الساعة، ربت شادي على رقبته وترك الإسطبل وعاد إلى القلعة.

كان قاسم يقف في بهو القلعة يتحدث مع والده يتحدثان، وما أن رأى نوار شادي حتى قال له:

-شادي أن الحاكم ينتظرك.

فسلم شادي على قاسم وسار في اتجاه قاعة الحكم ،حيث كان والده ينتظره، حياه شادي، ولكن الحاكم تكلم ما إن رآه دون أن يترك له فرصة للحديث:

- ستغادر اليوم إلى الغرب مع القائد قاسم.

فنظر له شادي مطولاً، لم يكن يعرف ما الذي عليه قوله، فلم يكن يرغب في السفر قبل أن يعرف ما هية الأحجار الستة التي يبحث عنها جواد، وأخيرًا قرر سؤال والده قائلا:

- مولاي الحاكم، كنت أرغب في سؤالك عن أمر ما؟

ونظر لوالده قليلا ومن ثم تابع:

- هل سمعت من قبل عن شيء يسمى الأحجار الستة؟

نظر الحاكم لشادي متفحصًا وكأنه يحاول أن يقرر ما الذي عليه قوله، وقال:

- لا، لم أسمع عن شيء بهذا الاسم من قبل.

وعم الصمت لثواني، كان شادي خلالها واثق من أن والده يعرف ما هي تلك الأحجار الستة وأنه لن يخبره عنها، وقبل أن يجد شادي طريقة ليعيد سؤاله على الحاكم، تكلم الحاكم بشكل أمر:

- هيا أيها الأمير لتستعد للسفر.

لم يستطع شادي أن يجادل الحاكم، فبالرغم من أنه لا يرغب في السفر إلا أنه لم يجد أنه من المناسب أن يقول هذا لوالده، لذلك حي الحاكم ومن جديد وغادر القاعة، كان قاسم في انتظاره خارج القاعة ، وما إن رآه حتى قال له:

- سنغادر بعد ساعة، استعد، سأتجه أنا إلى مبنى الجيش هناك بعض الأمور التى على ترتيبها مع القائد جلال الدين.

كان شادي لايزال يفكر في الأحجار الستة وفي عدم رغبته في الذهاب، لذلك أومأ لقاسم دون أن يتكلم واتجه إلى غرفته.

سيسافر وهذا أمر لا محالة له، ولا يعلم متى قد يقرر الحاكم المنصور وجواد بدأ حربهم تلك، وفي أى لحظة قد يستخدم الحاكم نور الدين شهندا كما أخبره، قد يعلن عن أسرها مع بدء جواد للهجوم، وقد يساومه بها قبل بدأ الهجوم.

شعر شادي بأن عقله قد أصبح عاجزًا عن التفكير، فهو لم يجد شيئًا في غرفة الدرس، ونوار أعلن عن عدم قدرته عن قول أى شئ له علاقه بها، والحاكم تظاهر أنه لا يوجد ما يعرف بالأحجار الستة، ومن المستحيل أن يسأل الأمير جاسم عنها.

بدل شادي ثيابه واستعد للسفر ولكن بدلا من أن يتوجه إلى مبنى الجيش حيث ينتظره قاسم، توجه إلى زنازين القلعة.

كان يريد الاطمئنان عليها قبل أن يغادر، فهو لا يعرف ما المدة التي قد يغيبها أو ما القرار الذي قد يتخذه والده في غيابه.

كانت كما تركها في الصباح، ولكن تلك المرة ما إن دخل حتى استدارت له، فتقدم منها شادي قائلا:

- كيف حالك الآن؟

لم تجبه، بل ظلت تنظر إليه، فجلس شادي وهو يتابع:

- سوف أسافر الآن مع الجيش إلى الغرب، هذا ما يريده الحاكم لكي أكون أكثر اطلاعًا على الأوضاع هناك، أردت الاطمئنان عليك قبل أن أغادر.

فاستدارت تنظر إلى النافذة في سقف الزنزانة، وقالت:

- هل هاجمكم جواد بعد؟

فقام شادي مستعدًا للمغادرة، وقال:

- لا ليس بعد، ولا أعتقد أنه سيفعل، سينتظر أن تكون لنا ضربة البداية.

واقترب من باب الزنزانة ومن ثم أضاف قبل أن يغادر:

- إلى اللقاء.

فقالت دون أن تستدير:

- لقد كان وقوفي أمام ذلك الدكان في هذا اليوم، هو أفضل ما حدث لي.

فابتسم شادي وغادر الزنزانة دون أن يتكلم.

* * *

(15)

obeikan.com

كان هذا هو أفضل وقت بالنسبة لشادي في اليوم بأكمله، فلا أحب له من الوجود مع الشيخ نعمان، فقد كان هذا الشيخ العجوز هو بالنسبة لشادي هو نافذته على العالم.

كان شادي جالسًا في غرفة الدرس في أعلى المبنى الرئيسي للقلعة ، فلسبب مجهول استدعى الحاكم نعمان تاركًا شادي مع الوزير نوار، كان نوار يجلس في مكان جلوس الشيخ، حين قال شادي متسائلاً:

- نوار، لماذا يريد والدي مقابلة نعمان؟

فابتسم له نوار وهو يقول:

- لا أعلم أيها الأمير.

بالرغم من صغر سن شادي إلا أنه كان يعلم متى يحاول أحدا من القلعة إخفاء أمرا عنه، وخاصة نوار، لهذا قال من جديد:

- وأين قاسم؟ لماذا لم يأت لحضور الدرس معى كالعادة؟

فقام نوار واقفًا وهو يجيبه:

- إنه مريض اليوم، لقد اعتذر للشيخ نعمان عن الحضور.

واقترب من الباب وتابع قبل أن يغادر:

- تابع ما طلبه منك الشيخ، واستعد لدرس الرماية بعد انتهاء الشيخ نعمان.

فأومأ شادي للوزير وهو على علم أن نعمان سيخبره ما يدور في القلعة ، فنعمان لم يخف عليه شيئًا من قبل، ودائمًا ما كان يعامله كالأمير وولي العهد المنتظر، وليس مجرد صبي في الرابعة عشر من عمره.

كان بين يديه كتابًا عن الأحجار الكريمة، طلب منه الشيخ أن ينهى قراءته حتى ينتهي مع الحاكم، لم تكن القراءة عن الأحجار الكريمة هي ما يفضله شادي، فقد كان يفضل أن يعرف أكثر في العلوم الطبيعية، وعلوم الإنسان والتاريخ، ولكن نعمان وعده أنه عندما ينهى قراءة هذا الكتاب سيكتشف أنها تضم من كل العلوم أكثر مما يظن، لهذا تابع مكرهًا.

لم تكد تمر دقائق حتى فتح الباب وطلت من خلفها رأس قاسم، سعد شادي جدًا لرؤيته، فقام وافقًا وقد ترك الكتاب واتجه إلى الباب حيث وقف قاسم وقال متسائلاً:

- لقد أخبرني نوار أنك مريض؟

فابتسم قاسم وتساءل بدوره:

- أنت بمفردك أليس كذلك؟

فاومئ له شادي، فتابع وهو يدخل غرفة الدرس:

- ما الذي يحدث اليوم؟ لقد أجبرني أبي على التظاهر بالمرض والاعتذار عن الدرس.

شعر شادي بالحيرة، فمنذ ولدا كلا من شادي وقاسم وهما يقضيان الوقت معًا ويقتسمان دروسهما معًا، ولكن قاسم تابع من جديد:

- ما الذي درسك إياه الشيخ اليوم؟

فنظر شادي بملل للكتاب الملقى على الطاولة وقال:

- عن الأحجار الكريمة.

تحمس قاسم كثيرًا، واتجه إلى حيث وضع الكتاب وأمسكه وهو يقول بشغف:

- يا للروعة، ستخبرني بما أخبرك به الشيخ.

تعجب شادي من حماسة صديقه، فقال:

- لم يخبرني شيئًا، ليس درسًا ممتعًا، أفضل أن يحدثني عن تاريخ الجزيرة، أو علوم الطبيعة، أو ما يوجد خلف البحر العظيم، لا عن الأحجار الكريمة.

تقدم منه قاسم وقد بدا عليه الشك الشديد وهو يتساءل:

- أحقًا تشتكي من درس عن الأحجار؟

فهز شادي رأسه وذهب ليجلس وهو يقول:

- ولما أتحمس لها؟ وما الذى يحمسك بهذا الشكل؟

فتوجه قاسم تجاهه وهو يقول وكأنه يشرح شيئًا شديد البساطة لطفل صغير:

- ألم تكن تحضر معي دروس الشيخ نعمان؟ ألم تسمعه عندما تكلم عن تشابك العلوم، وأن الأحجار الكريمة هى مفتاح اللغز، لقد قال لنا أن أهم أساطير الجزيرة مبنية على مجموعة من الأحجار.

ونظرإلى شادي متوقعًا منه أن يستوعب ويتحمس لدراسة الأحجار مثله، ولكن شادي ظل يراقبه دون فهم.

استيقظ شادي ونبضات قلبه متسارعة، لقد اقترب كثيرًا من حل اللغز، لقد سبق له وأن سمع عن أسطورة الأحجار الستة، حاول إغماض عينيه حتى يعود لحلمه لمتابعة قراءة هذا الكتاب، ولكن دون فائدة، حاول التركيز، ما الذي قرأه منذ ست سنوات في هذا الكتاب، ما الذي قاله له الشيخ نعمان بعدها، هل أخبره بتلك الأسطورة وقد نسي هو هذا؟

أخرجه من أفكاره صوت أحد الحرس الذي دخل إلى الخيمة وهويقول:

- مولاي ولي العهد، إن القائد جلال الدين يود مقابلتك؟

فاعتدل شادي وهو يحاول العودة إلى الحاضر، وتذكر ببطء أنه وصل في الأمس إلى الحدود الغربية حيث أقام معسكرًا لمراقبة جيشا المنصور وجواد، فأومأ للحارس ليدخل القائد.

كان القائد جلال الدين هو قائد جيش العاصمة وهو المكلف بقيادة الجيش لتأمين الحدود، دخل وحيا شادي ومن ثم قال:

- مولاي ولي العهد، إن الأمور عند الساسونين أهدأ من المتوقع، لقد أرسلنا في الأمس سرية لتفقد الأمور كما أمرت مولاي، جيش المنصور وجيش حليفه يحاصرون القبيلة من جهة المدينة الغربية بينما تركوا

الجهة المقابلة لنا بلا أي حصار، ولم يقطعوا طريق الساسونين عنا، بل إن التواصل منهم أسهل من المعتاد.

فقام شادي وقال وهو يرتدي درعه وسيفه:

- سآتي معك أيها القائد، اجمع لي قادة الجيش، وأرسل من يتفقد الأمر مع الحدود الغربية الشمالية والغربية الجنوبية

فانحنى القائد وخرج لينفذ ما أمر به، في حين نادى شادي على الحارس وطلب منه استدعاء القائد قاسم.

إن كان لايذكر شيئًا عما قرأه أو ما أخبره به الشيخ نعمان فمن المؤكد أن قاسم يعرف، لقد شاركه معظم دروسه لمدة طويلة قبل أن يرسله الحاكم ليتدرب مع حرس الحدود الغربية.

دخل قاسم إلى خيمة شادي، حياة ومن ثم قال:

- مولاي ولي العهد، لقد أخبروني أنك تود رؤيتي.

فقام شادي وتجاوز قاسم ونظر إلى خارج الخيمة، لم يكن هناك أحدفي الخارج سوى حرسه المعتاد، فدخل شادي من جديد ونظر إلى قاسم وقال:

- أود سؤالك عن أمر هام، هل تتذكر قبل التحاقك بالحرس عند الحدود الغربية، عندما كنا نتشارك دروسنا سويًا مع الشيخ نعمان رحمه الله.

بدت الحيرة على قاسم، ولكنه أومأ لشادي بالإيجاب، فتابع شادي:

- هل تذكر اليوم الذي أجبرك فيه نوار على افتعال المرض وعدم حضور الدرس معى، اليوم الأخير لك في القلعة قبل نقلك إلى الحدود الغربية، عندما تسللت يومها إلى غرفه الدرس وكنت أقرأ كتابًا عن الأحجار الكريمة؟

ازدادت حيرة قاسم، وهو يقول:

- اعتقد هذا، ولكن ما أهميه تذكري؟

تعالت ضربات قلب شادي وهو يقول بحماس:

- الأحجار الكريمة، كنت اقرأكتابًا عنها، ولم أكن متحمسًا لهذا، ولكنك أنت من كنت في شدة الحماس، وقلت إن الشيخ نعمان أخبرنا أن أهم أسطورة في الجزيرة مبنية على مجموعة من الأحجار، هل تذكر ما هية تلك الأسطورة؟

جلس قاسم وهو يحاول تذكر ما يقوله شادي، في حين تابع شادي:

- هل سمعت من قبل عن شيء يسمى الأحجار الستة؟

قالها شادي وهو يراقب قاسم، فقد كان يشعر أنه اقترب من فهم هذا اللغز، حين دخل الخيمة أحد الحرس وهو يقول:

- مولاي ولي العهد، لقد جمع القائد جلال الدين قادة الجيش وهم ينتظرون سموك في خيمة القائد.

- حسنًا سنأتي أنا والقائد قاسم خلال لحظات.

ونظر إلىقاسم وتابع:

- حاول أن تتذكر، أحتاج لأن تتذكر، تعالى الآن لننضم إلى القادة وبعدها نتابع حديثنا.

وخرج شادي ومعه قاسم وتوجها إلىالخيمة التي يجتمع فيها القادة، دخل شادي وتبعه قاسم، كان كلا من القائد مهران قائد الجنود فيإقليم السعدين، والقائد بشير قائدحرس المراقبة، والقائد جلال الدين قائد جيش العاصمة، وما إن دخل شادي حتى قال جلال الدين:

- لقد قمت بإرسال سريتين لتفقد كلا من الحدود الغربية الشمالية والغربية الجنوبية.

فقال القائد مهران:

- مولاي إن فرصتنا الآن في الانتصار على المنصور كبيرة، قد لا تتاح لنا تلك الفرصة، أرى أن نبدأ هجومنا الآن.

كاد قاسم يقول شيئًا ولكن شادي سبقه:

- الوضع الذي شرحه لي القائد جلال الدين غير مطمئن، فالمنصور ليس أحمقًا ليفتح لنا الطريق هكذا، كما أنه ليس بمفرده، فجواد قائد جيوش مدينة كوكب الأبيض و الأسود قد خرج بنفسه لنجد المنصور ليوضح لنا أنه في صفه، وجواد ليس خصمًا سهلا، في حال اعتبرنا أن هزيمة المنصور سهلة، إنه يسعى لدفعنا لنقض المعاهدة.

فقال القائد بشير:

- مولاي ولي العهد، أن ما يقول به المنصور ليس إلا خطة لاستدراجنا، وأعتقد أنها بناء على توجيهات من جواد، فهو معروف بخططه الملتوية، كما فعل من قبل في حرب الجنوب منذ تسعة عشر عامًا.

لفت ما قاله بشير انتباه شادي، بلى أن كل ما يقوم به المنصور ليس إلا بناءًا على توجيهات جواد، أن كل ما يحدث الآن ليس سوى جزء من خطته الكبرى التي بدأها بإرساله شهندا.

ولكن ان كان هذا ما يفكر فيه جواد، ما الذى يدفعه لمحاولة جذبهم عن طريق الساسونين، إلا إذا كان هناك جزء من الخطة لم يفهمها شادي بعد.

نظر إلى القادة من حوله، جميعهم كانوا في انتظار قراره، وكان الشئ الوحيد الذي فكر فيه الآن هو انتظار خطوة جواد التالية، أو التأكد من أن حصاره للساسونين ليس إلا خطة فرعية.

فنظر إلى بشير وقال:

- أريدك أيها القائد أن ترسل أحدا لتفقد حصار الساسونين، ولكن دون لفت الانتباه.

ونظر إلى جلال الدين وتابع:

- أريد التحدث معك في خيمتي.

وخرج شادي عائدًا إلى خيمته وهو يشعر أنه أخيرًا بدأ في فهم الطريقة التي يفكر فيها جواد.

* * *

(16)

كان شادي في خيمته مع قاسم وجلال الدين، وقد بدا على جلال الدين التعجب الشديد، في حين ظل قاسم محافظًا على ثبات ملامحه، كان شادي يراقبهما منتظرًا رأيهما فيما قال، وأخيرًا قرر جلال الدين التحدث قائلا:

- ولكن مولاي، لقد أمرني الحاكم بالبقاء هنا.

فقال شادي الذي كان متوقعًا إجابة جلال الدين:

- لقد أرسلني الحاكم هنا أيها القائد لأدير الأمور نيابة عنه.

- ولكن. .

فقاطعه شادي:

- نفذ ما طلبته منك أيها القائد.

بدا التردد على وجه القائد، وهو يحيي شادي وينصرف، وما أن غادر حتى قال قاسم متسائلا:

- هل لي أن أستفسر منك عن ما حدث؟

فقال شادي متذكرًا الأحجار الستة وما كان يريد من قاسم تذكره

- ليس الآن، سافهمك كل شئ، ولكن ما يهمني الآن هو ما طلبت منك تذكره، بشأن الأحجار الكريمة، وما يطلق عليه الأحجار الستة، هل تذكرت أى شئ عنهم.

أجابه قاسم بقليل من التردد، وعدم التأكد:

- إن ما أذكره عن هذا الأمر أنه كانت هناك أسطورة تتحدث عن حجر يعطى لمالكه القوة ومن يملكه لا يقهر، شئ كهذا.

شعر شادي بالحماسة، فسأله من جديد:

- هل تعرف أى شئ آخر؟

- لا للأسف، كما تذكر لقد أرسلني الحاكم بعدها لننضم إلى الحرس هنا، أنت من أكمل دروسه مع الشيخ نعمان رحمه الله.

فجلس شادي يفكر فيما قاله قاسم، حجر يعطي مالكه القوة، ومن يملكه لا يقهر، ولكن وفقًا لكلام شهندا، جواد كان يبحث عن ست أحجار وليس حجرًا واحدا، كانت هناك حلقة لاتزال مفقودة، أن هناك ما لم يعرفه بعد، لم يشعر أن ما قالته شهندا ينطبق مع ما قاله قاسم مع ما رآه في حلمه.

ولكن قاسم قاطعه:

- ما الذي ذكرك بهذا؟ لماذا تريد تذكر تلك الأسطورة؟

لم يعرف شادي بما يجيب قاسم، فقال بتردد:

- أنه مجرد حلم راودني وتذكرت هذه الأسطورة، ولكني غير قادر على تذكر تفاصيلها فقط لا شئ آخر.

نظر له قاسم بشك، في حين تذكر شادي ما قالته شهندا عن جواد، وأنه اكتشف في النهاية أن تلك الأحجار أو الحجر ليس سوى أسطورة أضاف إليها التاريخ سحرًا خاصًا، ومن جديد قاطع قاسم أفكاره:

- لماذا تريد من جلال الدين أن يذهب إلى الحدود الجنوبية الشرقية؟

نظر شادي مطولا لقاسم، فقد كان لا يزال مأخوذا في التفكير في تلك الأحجار، ومن ثم قال:

- أعتقد أنني فهمت كيف يفكر جواد، إن حصار الساسونين ليس سوى خطة تمويهية منه.

فبدا على قاسم عدم الفهم، فتابع شادي:

- إن جواد يرغب في دخول المدينة ، يرغب فيها أكثر من أي شيء آخر، ولن يستطيع فعل هذا إلا إذا جعل كل المدن في الجزيرة ضدنا، وهذا لن يتحقق إلا إذا نقضنا المعاهدة، حينها ستلتف جميع المدن حوله، حتى أنه سيكسب تعاطف القبائل القوية في الجزيرة، ونصبح نحن الطغاة، وتكون الطريق سانحة أمامه لدخول مدينتنا.

وجلس وهو يتابع:

- أن خطته مع المنصور ليست سوى محاولة واهنة منه لدفعنا لنقض المعاهدة، عندما نهاجنم جنوده لن يرد الهجوم وسيجعلنا نظن أنه انسحب، وبعدها يهاجمنا من جهة أخرى، جهه تتركز فيها أقل دفاعاتنا، الحدود الجنوبية الشرقية، حيث الجبال والصحراء وقرب العاصمة من حيث لا نحتسب الهجوم.

فقال قاسم:

- وكيف نتأكد من هذا؟

- سأتأكد بعدما يعود من يتفقد حصار الساسونين، وعندما أذهب لتفقد الحدود الجنوبية الشرقيه بنفسي.

فبدا على قاسم الاقتناع، حين تابع شادي:

- سيكون جواد مخطئًا إن ظن أنه باستطاعته هزيمتنا، حتى وإن كنا نحن البادئين بالهجوم.

فكر قاسم قليلا ومن ثم قال متسائلاً:

- ولكن من أين لك التأكد من أن جواد وراء كل هذا، أنه يكره الشمال وله عداوات قديمة معنا، ويرغب في الاستيلاء على المدينة أكثر من أي شيء آخر، ولكن ألا تظن أنه من الممكن أن يكون وقوفه بجوار المنصور ليس إلا لكره لنا؟ ، وأن ما يحدث من تفكير المنصور فقط، أنت تعرف رغبته في ضم سور المملكة القديم لمدينته بعد أن فشل في منعنا من ضمه إلينا.

وقبل أن يجيبه شادي، ارتفع صوت انفجار قوي، واندفع أحد الحرس داخل الخيمة:

- مولاي ولي العهد، لقد بدأت جيوش المنصور وجواد في الهجوم على الساسونين، إن نيرانهم مرتفعة في الصحراء.

فاندفع شادي خارجًا من الخيمة وامتطى رماح وانطلق صوب الحدود، كانت النيران مرتفعة حقًا، استقبله القائد مهران الذي قال ما إن رآه:
- بتلك الطريقة لن يصمد الساسونين.

نزل شادي من على جواده وسار تجاه أحد أبراج المراقبة، كان قاسم قد لحق به، ولايزال القائد مهران يتحدث:

- مولاي علينا التدخل، إن نيرانهم قد تصل إلينا.

ولكن شادي قال بقوة:

- لا لن نتدخل، أحكموا دفاعنا جيدًا، حافظوا على أمن الأسوار، لن نهاجم إلا إذا مست نيرانهم أسوارنا.

والتفت إلى قاسم وتابع:

- راقب الوضع عن كثب، سأسافر إلى شرق المدينة مع جلال الدين، أنا متأكد من خطة جواد الآن، إذا ما تمت مهاجمتنا ردوا هجومهم وبقوة.

فقال قاسم:

- ولكن يا شادي هكذا سينتهى أمر الساسونين قبل أن تغرب الشمس.

كان شادي بالفعل قد استدار بحصانه وهو يقول:

- لن يواصل هجومه طويلا المنصور أجبن من هذا، الساسونين ليسوا قبيلة ضعيفة ،كما أن لهم نفوذهم في أرجاء الجزيرة وجواد مشغولا بأهدافه الخاصة الآن.

وقبل أن يجيب قاسم لحق بهم أحد الحرس:

- مولاي ولي العهد.

توقف شادي، فلحق به الحارس وهو يتابع:

- مولاي ولي العهد، لقد أرسل الحاكم رسولا.

وفض الرسالة التي كان يحملها وقرأ منها:

- أيها الأمير ، أمن الحدود عند الغرب، وعد العاصمة فورا، حرس السور الشرقي أخطرونا بوجود قوات تراقبنا في الصحراء. الحاكم نور الدين.

فأومأ شادي للحارس، وهو يقول:

- أرسل للحاكم وأخبره أننا سنخرج لملاقاتهم من خارج المدينة ، وانقل لنا أي أخبار يتلقاها الحرس الشرقي، ووافني بتلك الأخبار عند النقطة الرابعة من الحرس الجنوبي.

ونظر إلى قاسم الذي نظر له وأومأ برأسه مقتنعًا، واستدار عائدًا للسور الغربي، بينما انطلق شادي صوب القائد جلال الدين الذي كان على وشك المغادرة، وما إن اقترب منه حتى قال:

- أيها القائد انتظر سوف أرافقك، لن نتحرك داخل المدينة ، سنذهب من الخارج، إن كانوا يظنون أنهم سيخدعوننا، سنقلب الوضع عليهم ونباغتهم من الخلف.

فأومأ القائد له، ونقل تعليماته لباقي الجنود وتحرك شادي مع جيشه في اتجاه جنوب المدينة بقرب إقليم صغير يدعى إقليم الوديان، أحد الأقاليم التي تقع قرب السور الجنوبي للمدينة ومنها ساروا بمحاذاة سور المدينة حتى وصول لمقر الحرس في الجنوب.

أعطى شادي تعليماته لقائد الحرس بتشديد الحراسة ومراقبة الصحراء والاستعداد للرد على أي هجوم، ومن ثم خرج للصحراء بجيشه سائرين بمحاذاة السور حتى وصلوا إلى النقطة الرابعة التي حددها شادي للحارس، والتفت إلى جلال الدين وقال:

- قم بجعل الفرسان ينتشرون دون أن يشعر بهم أحدا، سننتظر أخبار الحرس الشرقي ومن ثم سنحدد ما نفعله.

* * *

obeikan.com

obeikan.com

(17)

اللقاء الأول

لم يستمر انتظار شادي طويلا، فقد تأكد من وجود جنود كوكب الأبيض و الأسود في مناطق متفرقة من الصحراء، ولكن لم يستطع التأكد جيدًا من عددهم، ولكنه استطاع تكوين فكرة عما قد يستطيع فعله وقد ساعدته الأخبار التي أتى بها رسول الحرس الشرقي.

فقد أخبرهم أن الجنود في الداخل على أهبة الاستعداد للهجوم عليهم ما أن يعطيهم شادي الإشارة، كما حدد لهم موقع تجمع الجنود وفق ما حدده مراقبين الشرق الجنوبي.

وهكذا وقبيل سطوع شمس اليوم التالي، أعطى شادي أمره للجنود بالهجوم، وأرسل للحرس ليستعدوا، فقد كانت فكرته تكمن في مفاجئتهم لهز صفوفهم ومن ثم الهجوم لهزيمتهم.

كان الطقس باردًا حين قاد شادي جنوده أعلى أحد التلال التي تطل بشكل غير مباشر على موقعهم، وانتظر حتى تتأكد من هدوء حركتهم ومن ثم أمرهم بالهجوم، انطلقت سهامهم بقوة واستطاع شادي رؤية أثر المفاجأة عليهم، فترك الرماة وسار للأسفل مع الفرسان في اتجاههم، نظر إلى السماء ليحاول تحديد الوقت الباقي على هجوم جنود حرس الحدود الشرقيةكما اتفق معهم، لقد اقترب الموعد، فهجم بجنوده.

انطلق شادي على صهوة رماح بقوة وانطلق خلفه فرسانه وكأنهم أشباح تظهر من العدم، أثارت خيولهم رمال الصحراء وبعثرتها قوة الخطوات وسرعتها حتى أصبح هجومهم أشبه بالعاصفة الرملية القوية، وعلت أصواتهم لتبث الخوف في قلوبهم أكثر.

واستطاع شادي تحقيق الأثر الذي كان يرجوه، فقد كان لظهورهم الفاجئ تأثير قوي على جنود كوكب الأبيض و الأسود، فقد تخبطت صفوفهم، وبدا عليهم عدم القدرة على تجميع صفوفهم مرة أخرى.

ولم تكد تمر بضع دقائق حتى استعادوا قوتهم وبدءوا في هجومهم المضاد، وتلاحم الجنود بالرغم من عددهم القليل إلا أنهم كانوا أقوياء، يقاتلون ليقتلوا، لا يترددون، وقد استطاع شادي أن يستشعر خوف فرسانه من قتال أعدائهم المستميت.

حاول شادي الوصول إلى القائد جلال الدين، وقد كان هذا ليس بالأمر السهل، فقد بدا واضحًا أنهم علموا أنه وسط جنوده وأصبح هدفهم الوحيد هو الوصول إليه ، فإذا كانوا سيقتلون فليأخذوا ولي العهد معهم.

وهذا ما أكده له أحد جنوده، فقد كان يصد ضربة أحد الفرسان أمامه حين باغتته ضربة سيف من خلفه صدها أحد جنوده ومن ثم قال له:

- مولاي سنؤمن لك الطريق لتعود، إنهم على علم بوجودك بيننا ويستهدفونك.

فكاد شادي أن يتكلم قبل أن يقترب منهم جلال الدين قائلا:

- هناك مدد قدم لهم، لقد كانوا يستعدون لهجومنا وكأنهم كانوا على علم به.

فنظر شادي للفارس الذي حماه من الهجوم السابق وقال:

- عد للحدود الجنوبية واعرف لما لم ينضموا إلينا كما كان متفقًا عليه.

ونظر إلى جلال الدين وتابع:

- حاصرهم من جهة الحدود الشرقية واحرص على ألا يقتربوا منها.

انطلق كلا من جلال الدين والفارس، بينما تابع شادي قتاله وهو يفكر، ما الذي أخر جنود الحدود الجنوبية عن الانضمام اليهم كما كان متفق، وكيف كانوا جنود كوكب الأبيض و الأسود على الاستعداد لهجوم شادي المباغت.

مع مرور الوقت كان سهلا على شادي رؤية نهاية جنوده أمام أسوار مدينتهم، فقد قادهم بنفسه إلى الهلاك، فقد كان عدد جنود كوكب الأبيض و الأسود يتضاعف، وتزداد قوتهم بينما كانت أعداد جنود شادي تتناقص ويدب الخوف في قلوبهم.

ارتفع صهيل خيول قادم من خلف موقع جيش شادي، كان صهيل قوي يهز الصحراء ويناثر تلك الحبيبات الخفيفة للرمال من حولهم، كانت الشمس ساطعة فوقهم الآن حين وصل وصل مدد من جنود الحرس الشرقي، وبمرونة استطاعوا أن ينظمو صفوفهم ويقاتلون بقوة مما أعاد بعض الثقة لفرسان شادي ،ولكن قوة وعزيمة جنود كوكب الأبيض و الأسود لم تقل بل ازدادت، وأصبح قتالهم أشرس،

فلم يهتموا بجرحاهم أو قتلاهم، كانوا مهتمين فقط بقتل أكبر قدر من جنود مدينة الأحلام معهم.

وأخيرًا استطاع شادي أن يرى الوزير جواد، وزير ومدبر الأمور في مدينة كوكب الأبيض و الأسود، لم يسبق لشادي أن رآه من قبل وجهًا لوجه، ولكنه عرفه، فقد استطاع بالرغم من ملامح الكبر التي ارتسمت على وجهه أن يميز الوجه المغرور الذي رآه في بعض الرسومات من قبل.

كان جواد يمتلك جسد مقاتل ماهر، فقد كانت أكتافه العريضة وقامته الضخمة تعطيه هيكلاً مخيفًا، بالإضافة للحدة المرتسمة على وجهه، واستطاع شادي أن يعرف أن جواد ليس خصمًا سهلاً.

ولكن أمرا واحدا هو الذي دفع شادي ليشق طريقه بين الصفوف بقوة ليصل إليه، فقد كان يعرف أن جواد يجب ألا يموت، فحرية شهندا مرتبطة به، فأمر جلال الدين أن يأمر الجنود ألا يقتل أحدا جواد وأن يسعوا لأسره حيًا.

كان شادي يحاول الوصول إليه ولكن جنوده كانوا يحمونه جيدًا فقد توالت الضربات من كل جهه فبعكس شادي الذي أمر بأسر جواد لا قتله، بدا واضحًا أن جواد أمر بقتله.

استمرت المعركة لبضع ساعات أخرى، سقط الكثير من القتلى والجرحى، ولكن شادي لم يكن يفكر سوى في شئ واحد، أسر جواد، أن ياسره بنفسه، كان يعرف أنه لن يشعر بالرضى أن لم يهزمه بنفسه، إن لم يقدمه بنفسه لشهندا لتخرج حرة من أسرها.

أخيرًا استطاع شادي الوصول أمام جواد، كانا متقابلين، نظر جواد بحدة في وجه شادي، نظرة تحمل من الكراهية والضيق ما يماثل الكراهية والضيق اللذين كان يشعر بهما شادي تجاهه.

لم يتوان جواد وهب يلقى بضربات متلاحقة واحدة تلو الأخرى ليضعف شادي الذي أخذ يتفادي الضربات بمرونة وسرعة، ولكنه لم يستطع أن يرد الهجوم، كان كل ما استطاع شادي القيام به أمام جواد هو التراقص بحصانه بقوة متفاديًا الضربات القادمة من سيف جواد.

وفجأة وقف رماح عن الحركة، وأصبح يهز رأسه يمنًا ويسارًا بعنف، وفقد شادي السيطرة عليه، وأصبح تركيزه موزع بين محاولة تفادي ضربات جواد التي ازدادت قوة وثقة وبين محاولته السيطرة على رماح من جديد.

فهم شادي إصابة رماح، فقد كان هناك رمح استقر في ساقه الأمامية وجعلته يتألم، ولكنه رفض الاستسلام، وانشغل شادي بما أصاب رماح ونسي جواد الذي استغل انشغاله وكاد يهوي على رأسه بضربة قوية من سيفه صدها جلال الدين بأعجوبة، وحين اعتدل شادي واستعاد تركيزه في المعركة، كان هناك عدد من جنوده استطاعوا الوصول إليه ومساعدته في قتال جواد، قال له جلال الدين حين أصبح تقريبًا منه:

- نحن نفوقهم عددًا الآن، لقد فرت مجموعة منهم إلى الصحراء.

وبالفعل كان سهلا رؤية سيطرة جنود الأحلام على أرض المعركة، ولاحظ جواد هذا أيضًا فحاول الفرار، ولم يستطع شادي مطاردته لإصابة رماح، فأمر جلال الدين ومن معه بمطارته وعدم العودة إلا به حيًا.

وعندما رأت البقية الباقية من جنود كوكب الأبيض و الأسود قائدهم يفر، انسحبوا هم أيضًا، وقبل أن تتجه الشمس تجاه الغرب كان جنود كوكب الأبيض و الأسود قد فر منهم من فر وأسر منهم من أسر ولكن جواد استطاع الهرب.

عاد شادي وجنوده إلى داخل أسوار مدينة الأحلام وهو غاضب وحانق لعدم استطاعته أسر جواد، كان يسير إلى جوار رماح بعد أن رفض امتطاء أى من الخيول الأخرى.

لم تكن إصابة رماح خطيرة، فعندما عاينها شادي عن قرب وجد أنه سيحتاج إلى الراحة بضعة أيام وبعدها يكون بخير ما إن يلتأم جرحه.

وصلوا للحرس الشرقي وأقاموا هناك ليستريحوا، وما أن وصل شادي لخيمة القائد سليمان أمر هم بأن يرسلوا رسولا للحاكم ليطمئن على الحدود الشرقية والجنوبية للمدينة.

وتحرك الرسول مع سرية من الفرسان لنقل الأسرى إلى سجن الأسرى في القلعة الرئيسية، كما أرسل رسولا للغرب يطلب منهم تقريرًا مفصلا عن أحوال الحدود.

وأخيرًا بعد أن انتهى قرر أن يستريح قليلا ليستعد إلى الرحلة في المساء ليعود للعاصمة.

وما أن خلى شادي لنفسه حتى أخذ يلوم نفسه بشدة، فهو المسئول عن فرار جواد، لقد كان بينه وبين حرية شهندا لحظات ولكنه لم يفعل، وتركه يفر.

ولكن جواد مقاتل ماهر يجيد الضرب بالسيف والمناورة، حتى أنه يفوق شادي وقد أحب أن يعترف بهذا أمام نفسه، فقد كان هذا أكثر ما يقلقه، فقد شعر اليوم أن جواد هذا هو خصمه، شعر أنه لن يكون راضيًا أن أسره أحد القادة أو الفرسان، يجب أن يكون هو من يأسره.

وغفلت عين شادي وهو يقسم لنفسه ألايتكرر فرار جواد منه من جديد، وأنه في المرة القادمة ستكون الأخيرة وسيكون جواد ضمن الأسرى ويوضع في الزنزانة بدلا من شهندا.

* * *

obeikan.com

(18)

حجر القوة

مع صباح اليوم التالي وصل شادي للقلعة ، كان الحاكم نور الدين والوزير نوار في انتظاره، بدل ثيابه وتوجه لقاعة الحكم رغمًا عنه، فقد كان يرغب قبل أى شئ أن يمر على زنازين القلعة وأن يطمئن على شهندا.

دخل قاعة الحكم، حيي الحاكم الذي بادره قائلاً:

- حمدًا لله على سلامتك، ما أخبار الحدود؟

- حدودنا مؤمنة الآن، لن يعاود جواد مهاجمتنا، في الحقيقة لا أظن أنه قد يهاجمنا تقريبًا، لقد كسر المعاهدة، وهو يعلم جيدًا أننا لو استدعينا مدن الجزيرة ضده سيكون الجميع في صفنا.

بدا على الحاكم الاقتناع بما يقوله شادي، حين تكلم نوار:

- يقول رسول القائد وهدان أن المنصور انسحب.

فقال شادي:

- لم يكن هجوم المنصور على الساسونين سوى بناء على رغبة جواد.

ونظر إلىالحاكم وتابع:

- ما الذي ينوي مولاي فعله الآن؟

فبدا التفكير على الحاكم، وشعر شادي بأنه على علم بما يفكر فيه الحاكم وما سيقوله، لهذا قال قبل أن يجيب الحاكم:

- سأذهب لأرتاح، حدودنا مؤمنة، ونحن على أهبة الاستعداد إذا ما فكر أحدهم في مهاجمتنا، وهذا هو المهم.

وحيا والده وانصرف وهو يعلم جيدًا أن ما يريده والده سينفذ عاجلًا أو آجلاً، ولم يستطع الاعتراض حينها، ومن جديد لام نفسه بشدة، لو أن استطاع أن يهزم جواد ويأسره لكانت شهندا حرة الآن.

خرج من القاعة ليفاجأ بقطر الندى في انتظاره، ابتسمت له وهي تقول:

- حمدًا لله على سلامتك. لقد خفت عليك كثيرًا.

لم يجبها شادي وتابع سيره، حين لحقت به وهي تتابع:

- لقد فكرت أن نقيم حفلا، ما رأيك؟ لم نقم واحد منذ مدة؟

فالتفت لها شادي قائلا بجفاء وضيق:

- نحن لم ننتصر بعد لنقيم الاحتفالات لقد كانت مجرد معركة.

بدا التوتر على وجهها وكأنها لا تعرف ما الذي عليها قوله، فاستغل شادي الفرصة وتابع سيره في اتجاه الزنازين، فلم يكن يرغب في أي شيءالآن، سوى رؤية شهندا والاطمئنان عليها.

كانت تجلس على الأرض كما اعتادت أن تفعل، أمر شادي الحارس بفتح الزنزانة، فالتفتت شهندا على الصوت على غير عادتها، لقد كانت لاتزال تبكي، هذا ما استطاع شادي رؤيته بسهولة، قامت واقفة وهي تمسح دموعها:

- هل أنت بخير؟

فابتسم شادي بمرارة وهو يقول:

- لا أزال حيًا.

واقترب منها وهو يتابع:

- لا أزال حيًا ولا تزالين أنت هنا في هذه الزنزانة، أنا آسف. .. لقد كنت على بعد لحظات من حريتك، ولكني خذلتك.

لم يدرك شادي ما مدى حزنه وألمه لتركه جواد يفر إلا عندما واجه شهندا، لقد خرجت كلماته لتوحي بمدى الألم والحزن الذي يشعر به، مرت ثواني من الصمت همست بعدهاشهندا:

- هل قابلته؟

استطاع شادي تذكر ملامح وجه المغرور بدقة، قوته القتالية الفائقة، جسده القوي، تذكره وهو يومئ لشهندا بالإيجاب، لم يجد شادي ما يقوله لها، لم يجد من الكلمات ما قد يواسيهما الآن، سرحت شهندا في

أفكارها الخاصة، بينما شعر شادي في تلك اللحظة بشعور غريب، شعور بالراحة، وكأنه في مكانه المعتاد، لم يشعر بالظلام من حولهما والذي لا يقطعه سوى الضوء الخافت القادم من النافذة في أعلى الزنزانة، ولم يشعر بالبرودة التي يمتلئ بها المكان.

وجد الكلمات تخرج من فمه دون أن يفكر، هل يقول هذا أم لا، هل يمنعه واجبه أم لا:

- لقد تغلب علي، لقد بارزته وتغلب علي، شغلتني إصابة رماح لثواني ففر هاربًا، ولكني لن أدع هذا يتكرر مرة أخرى، سأهزمه، سألقيه هنا في المكان الذي يستحقه.

وقام واقفًا، كان عليه أن يرتاح، أن يفكر جيدًا ما هي الخطوة القادمة، وما أن اقترب من الباب حتى أمسكت شهندا بيده وقالت:

- أرجوك توخى الحذر.

فأومأ لها وغادر الزنزانة، وهو لا يعلم ما الذي عليه فعله، كان يشعر بالإرهاق، كان متعبًا جدًا، صعد إلى غرفته حيث قابله أحد الحرس ليخبره أن الحاكم ينتظره في غرفة الطعام، فطلب منه شادي أن يعتذر للحاكم ويخبره أنه متعب الآن.

بدل شادي ثيابه واستلقى على فراشه، كان يرغب في النوم بشدة، ولكن النوم أبى أن يطيعه، ظل فوق فراشه يراقب الضوء القادم من النافذة حتى غربت الشمس، وبحلول موعد تناول العشاء سمع طرقًا على الباب، ولكنه لم يجب، وتظاهر بالنوم عندما فتح باب الغرفة

ودخل أحد الخدم يحمل صفحة عليها الطعام فوضعها على الطاولة وانصرف.

اعتدل وهو لايزال يذكر بدقة كل ما حدث في المبارزة بينه وبين جواد، لقد هزمه جواد، لقد كاد أن يصيبه لولا وجود جلال الدين، شعر بالضعف، ، لقد كان دائمًا ما يرى نفسه مقاتلاً ماهرًا، ولكن ها هو في أول اختبار حقيقي له يثبت ضعفه.

قام واقفًا واتجه إلى النافذه ووقف يتأمل الحديقة الأمامية للقلعة ، كان كل من الأمير جاسم وابنته الأميرة قطر الندى يقفان معًا يتناقشان فيأمر ما وقد بدى على الأمير جاسم الغضب، ولكن شادي رفع عينيه عنهما ناظرًا للسماء.

قادته أفكاره أن عليه أن يتمرن، أن ينزل لمقر الجيش ويتدرب معهم، عليه أن يكون جاهزًا للقضاء على جواد في المرة القادمة التي تجمعه به.

وأثر تلك الفكرة عاد لفراشه من جديد وحاول النوم، فقد كان في انتظاره يوم طويل في الغد.

* * *

وقف شادي خلف دكانه، لم يعلم تحديدًا ما الذي دفعه للذهاب إلى السوق، ولكنه عندما استيقظ وجد رغبته في العودةإلى السوق قوية جدًا، ولعل السبب الرئيسي هروبه من والده، فلم يكن يرغب في أن يقول والده حقيقة ما يفكر فيه ويريده.

فقد استقرت أفكار شادي على شيئين، أولاً التدرب في الجيش ليزيد من قوته، ومن ثم التوجه إلى حيث يوجد جواد ويهاجمه في مدينته، وهذا ما كان شادي واثقًا من أن والده سيرفضه.

لم يرى شهندا منذ تركها فى الأمس، لم يجد في نفسه القوة والقدرة على مواجهتها من جديد وهو يعلم جيدًا أنه خذلها، أنه كان على بعد خطوات من حريتها، كما أنه يعلم ما هي الخطوة التي سيقدم عليها والده الآن.

قاطع أفكاره صوت زهران الصغير وهو يقول:

- يقول جدي أنك مغرم.

فابتسم شادي وهو ينظر إليه قائلاً:

- لقد كبر جدك يا زهران، هناك العديد من الأشياء التي لم يعد يميزها.

ونظر شادي لصديقه العطار وابتسم مغيظًا، في حين تابع الصبي:

- لقد كان يحكى لي الآن عن تاريخ الجزيرة، هل تعلم أحلم بأن أسافر في كل أرجاء الجزيرة، أن أتأكد من كل حكايات جدي، أن أذهب إلى ما وراء البحر العظيم وأعرف ما هناك.

ووقف فوق مقعد شادي وأضاف بحماسة:

- زهران التاجر الرحال.

فضحك شادي، فنظر له زهران الصغير وقال معاتبًا:

- هل تسخر مني يا شعبان؟

- لا لا بالطبع لا أسخر منك، ستكون تاجرًا رائعًا، إنني معجب بطموحك.

كان الزحام بدأ يقل في السوق، فقال زهران العطار:

- ما رأيك أن تغلق دكانك يا شعبان وتأتي معي لنشرب كوبين من الشاي؟

فكر شادي لدقائق، كان في حاجة لأن يبعد أفكاره قدر المستطاع عن القلعة وما بها، فوافق صديقه وأغلق دكانه ومن ثم سار معه إلى منزله.

ما أن وصلو حتى طلب زهران من زوجة ابنه أن تجهز لهما الشاي، ومن ثم جلسا، فقال شادي:

- ما هي أخبار سالم؟

- إنه بخير، في الواقع لقد تحسن عما قبل.

دخل زهران الصغير إلى الغرفة ومعه الشاي، وضعه ومن ثم جلس إلى جوار شادي وهو يقول موجهًا حديثه إلىجده:

- فلتتابع حكايتك يا جدي. ... أراهن أن شعبان سيسعد لسماعها.

ونظر لشادي بأمل أن يؤيد كلامه، فابتسم شادي وقال:

- إن كان لديك حكاية جيدة يا زهران فأنا أتوق لسماعها أنا الآخر.

بدت السعادة على الصبي حين قال زهران العطار:

- حسنًا أظن أنى أملك واحدة جيدة.

واعتدل في جلسته وتابع:

- يقال أنه في قديم الزمان، قبل أن يظهر السلطان بشير بسنوات عديدة، كانت قبيلة الخالدين من أكبر المدن في الجزيرة، بعد تحالفها مع الجن.

وأمسك زهران بكوبه وشرب منه قليلا، ومن ثم تابع:

- في تلك الأيام كان الجن هم الحاكمون في الجزيرة، كانت قبيلة كبيرة حكمت الجزيرة لمئات السنين واسمها مأزر، لهذا تلقب الجزيرة في بعض كتب التاريخ بجزيرة مأزر، كان الجن يحكمون قبضتهم على كل شئ، ولم يكن للبشر حينها نصيب كبير من الجزيرة، فقد كانت مدينة صغيرة في الشمال كانت تدعى الدوارق، يحكمها بشري تحت إمرة الجن. .. كان البشر قد وافقوا على هذا الوضع لسنوات، إلا أن السحرة رفضوا، ولكن كبيرهم قنطة استطاع التوصل إلى اتفاق مع كبير الجن مأزر. .. إن الجن يخافون السحر وحتى إن تظاهروا بالعكس. ..

من جديد توقف زهران ليرشف من كوبه قليلا وتابع:

- مع مرور الزمن، أصبحت الرابطة بين الجن والسحرة قوية، وقد أيقن الجن أن عدوهم الوحيد في الجزيرة هم سحرة قبيلة الخالدين، لأن قنطة زعيم السحرة وأكبرهم عمرًا وقوة، قرر القضاء عليهم وأن تكون السيطرة للسحرة، وحاول تسخيرهم له، وعمل على تسخير كائنات أخرى لتكون في صفة، كالدبارقة– كائنات عملاقه شرسه تقاتل

بقوة وتسكن الجبال- والعفاريت وحتى أقزام الماء –كائنات صغيرة الحجم تعيش في الماء ولها قدرات سحرية- ولكن كلهم انقلبوا ضده، لهذا لم يكن أمامه بد من أن يستعين بالبشر الذين يكرههم أشد كره. .. ولهذا صنع حجر القوة.

بدت الدهشة على شادي ولم يستطع منع نفسه من أن يقول مندفعًا:

- ما الذي تعرفه عن حجر القوة؟

بدا القلق على زهران ،ولكنه قال:

- أعرف عنه ما يعرفه كل العجائز من أساطير.

فقال شادي من جديد وبذات الاندفاع:

- أخبرني ما الذي تعرفه عنه، كل ما تعرفه عنه.

وعندما لمح التعجب والقلق في وجهه زهران أضاف بهدوء:

- لقد كنت أبحث في الأمر من مدة.. ولكني وجدت كل الطرق أمامه مغلقة.

وضع زهران الكوب من يديه، وقال:

- عندما لم يجد قنطة بدًا من الاستعانة بالبشر، وقد كان الأمير وهران هو من قدم عرضه للمساعدة، ولكنه طلب من قنطة أن يصنع له حجرا يجلعه أقوى من تلك الكائنات وأن تسخر له قوى الطبيعة، ولأن قنطة كان يائسًا فقد وافق على طلب وهران، ولكنه ساحر قوى وماكر، فقد صنع له الحجر ووضع تعويذة تضمن له ألا يصبح وهران أقوى منه... وبالفعل استطاع وهران بمساعدة هذا الحجر القضاء

على تلك الكائنات وعلى نفي من بقي منهم إلى خارج الأرض ، فالجن هناك من يقول أنهم مدفونون تحت الأرض وهناك من يقول أنهم يعيشون في أرض تحت الماء حيث يعيش أقزام الماء.. ولكن أحدا لا يعرف الحقيقة.

كان زهران الصغير أن يقول شيئًا ولكن شادي سبقه:

- وما الذي حدث للحجر؟

تنهد زهران العطار وقال:

- هناك أقوال عديدة ولا أحد يعرف حقيقتها، فقبائل الخالدين كتومة جدًا بهذا الشأن ولا تتكلم فيه مطلقًا، فعلى سبيل المثال، انتشر أن التعويذة فُعلت عندما حاول وهران استخدام سحر الحجر ضدهم، فكسر الحجر إلى ستة أجزاء وتفرقت في الجزيرة، وسميت بالأحجار الستة، وهناك من يقول أن الجن أخذوه قبل أن يختفوا ولهذا لا نراهم ولا نسمعهم بينما هم يروننا ويسمعوننا، وهناك من يقول أن الأمير وهران هو جد السلطان بشير وأنه ترك الحجر لحفيده لهذا استطاع السلطان توحيد الجزيرة تحت إمرته. .. ولكن كلها أحاديث العجزة مساءًا ولا شيء منها مؤكد.

* * *

(19)

خطة الحاكم

لم يكن شادي يعرف ما الذي عليه فعله، فشعوره أن هناك حلقة مفقودة لايزال يلاحقه منذ غادر منزل زهران أمس.

حجر القوة هل هو أسطورة حقًا؟ هل ما قاله زهران لا يتخطى كونه إحدى حكايات الجد العجوز لحفيدة؟ أم أن هناك جزء من الحقيقة فيها، لقد عرف طوال حياته أن أي أسطورة لابد وأن فيها خيطا يصلها بالواقع، ولكن تلك الحكاية مليئة بالخيوط التي تدل بشكل قطعي أنها من الخيال وليس العكس.

obeikan.com

فهو لم يسمع من قبل عن الأمير وهران ناهيك أيضًا عن احتمالية أن يكون جد السلطان بشير الأول، وكذلك الجن والعفاريت وأقزام الماء، الشئ الوحيد الذي له صلة بالواقع هو كون قبيلة الخالدين مشهورة بالسحر منذ الأزل، وأنهم منذ معاهدة الحفظ مع السلطان بشير الأولوهم لا يستخدمون قوتهم ولا سحرهم ولا يتشاركون مع باقي الجزيرة.

لم يجد شادي حوله من يسأله، من يثق أنه سيعطيه الإجابة التي تريحه، وزاد من ضيقه هذا الحارس الذي أتى منذ قليل ليخبره أن الحاكم يريد الاجتماع به، وقد فهم شادي أن استخدام الحاكم لكلمة الاجتماع به تعني أنه لايزال يذكر خلافه معه.

بدل شادي ثيابه وتوجه إلى قاعة الحكم، كان الحاكم ينتظره بمفرده، زاد هذا من قلق شادي وتوجسه، فحيا والده وظل واقفًا، فقال الحاكم:

- لقد نقلت الأميرة شهندا لسجون مبنى الجيش.

قالها الحاكم بحزم وسكت قليلا، متيحا لشادى الفرصة لأن يستوعب ما قيل، وبالرغم من أنه تعجب من كلمات والده وشعر بالغضب إلا أنه حاول الحفاظ على ملامح وجهه وتعبيراته، فقد كان واثقًا من أن الأسوأ سيأتي، ومن جديد تكلم الحاكم:

- سيقوم القائد جلال الدين بإرسال رسولاً لمدينة كوكب الأبيض و الأسود لإعلام الوزير جواد أن الأميرة في سجوننا، وأننا لن نطلق سراحها سوى بتسليمه لنا.

كان هذا ما توقع شادي سماعه، بالرغم من محاولته ألا يظهر شعوره، إلا أنه وجد نفسه يقول بغضب:

- وهل تعتقد أن جواد سيسلم لك.. بتلك السهولة؟

وقبل أن يجيب الحاكم، تابع شادي بحدةأكثر:

- ألم تستوعب بعد خطة جواد. .. ألم تفهم طريقة تفكيره بعد.. إن هذا بالتحديد ما يريده، إنه يريدك أن تتخلص منها بدلا من أن يقوم هو بهذا، إنه يسعى وراء المدينة ، يسعى لأن يكون هو الحاكم.

وصمت وظل ينظر لوالده الذي بدا الغضب يرتسم على وجهه، ولكن شادي قال من جديد بهدوء أكثر:

- اترك لي التعامل في هذا الأمر. . اسمح لي أن أثبت لك أنها بريئة، اترك لي تلك المعركة، بالفعل لدي خطة، ولو لم تنجح فلك أن تتعامل مع الأمر كما ترى.

وتابع نظره إلى والده بثبات، لم يكن يمتلك أى خطة، ولكنه لم يكن ليسمح لوالده بتحقيق خطته تلك، لن يوافق على أن تذل شهندا بهذا الشكل.

نظر له والده وقال بحدة وحزم:

- لك فرصة واحدة يا شادي.. واحدة فقط، لن أسمح أن تعرض أمن المدينة لأي خطر

فانحنى شادي لوالده محييًا ومن ثم انصرف وهو لا يعرف ما الذي عليه فعله، أمامه فرصة واحدة ليبرئ شهندا، ليخرجها من أسرها، ليثبت لوالده أنه أهلا للثقة.

توجه إلى مقر الجيش، كان أمامه هدفان، الأول الاطمئنان على شهندا، ثانيًا بدء خطته التي لا يعرف عنها شيئًا حتى الآن، كان مقر الجيش يقع غربي مبنى القلعة الرئيسى، خلف الحديقة الغربية والمباني الملحقة، لم يشعر بالطريق، فقد امتطى حصانه رماح وانطلق صوب مبنى الجيش.

وما إن وصل حتى طلب من أحد الحرس أن يجمع له قادة الجيش وأن يدله على الزنزانة التي نقل إليها اليوم أحد سجناء القلعة.

كانت سجون الجيش تختلف كثيرًا عن سجون القلعة ، فقد كان مبنى مظلم، زنازينه لا يوجد بها أى أثاث، ولا أى منافذ للضوء، كانت شهندا موجودة في زنزانة في منتصف المبنى، كانت جالسةفي زاوية الغرفة وقد ضمت ساقها إلى صدرها، أمر شادي الحارس بفتح الزنزانة وأن ينصرف هو.

لم ترفع عينها عندما دخل شادي، وظلت كما هي، فاقترب منها شادي وقال لها هامسًا:

- أنا آسف.

رفعت عينيها ببطء، لم يكن يرى وجهها بوضوح في هذا الظلام، فاقترب منها أكثر وجلس على أرضية الغرفة إلى جوارها، وتابع:

- لم أكن أعرف

فقالت بصوت مبحوح هادئ:

- لا تعتذر.

وعم الصمت عليهما لثوانٍ قبل أن يقول شادي:

- سأسافر إلى مدينة كوكب الأبيض و الأسود، سأشن هجومًا على جواد، لا أعلم كيف، ولكني سأحاصره وأقتله، لن أعود إلا وهو معي. ... أو لن أعود على الإطلاق.

نظرت له شهندا، ولم تتكلم، فقام واقفا، فقالت له قبل أن يغادر:

- احترس. .. خروجي من هنا ليس مهمًا بقدرك.

فابتسم لها وقال مؤكدًا:

- سأعود به. .

وخرج من الزنزانة، واتجه إلى مبنى القادة وهو لا يفكر سوى أن عليه أن يكون جواد من الأسرى أو القتلى وألا يفر منه من جديد.

كان قادة الجيش بقيادة جلال الدين في انتظاره، وما إن دخل حيوه ومن ثم بدأ شادي كلامه:

- أريد للجيش أن يبدأ في تجهيزاته، أريد أن يكون جيش المدينة كله على أهبة الاستعداد.

ونظر إلى جلال الدين وقال:

- متى سيكون الجيش جاهزًا؟ .

فقال جلال الدين وقد بدى جليًا عليه عدم الفهم:

- عندما تأمر مولاي.

فتابع شادي:

- ستكون مسيرتنا للجنوب، لمدينة كوكب الأبيض و الأسود، لقد كسر جواد المعاهدة التي بيننا عندما هاجمنا، لهذا فإن هجومنا له مبرر، وسيكون هدفنا هو جواد نفسه، لن يعود الجيش إلا إذا سقط جواد وستكون تلك مهمتي.

ونظر إلى أحد القادة وتابع:

- ستكون أنت أيها القائد بجاد قائد المجموعة التي ستحمي الجيش، سيكون دوركم في تأمين كل المداخل التي قد يستغلها جواد للوصول إلى قلب الجيش، وكذلك التأكد من ألا يهرب جواد تحت أي ظروف.

ونظر إلى قائد آخر:

- أيها القائد وهدان، ستتولى ميمنة الجيش، وأريدكم أن تؤمنوا القلب وذلك أيضًا سكون دور القائد جلال الدين الذي سيتولى الجناح الأيسر من الجيش، سأقود الجيش وستكون مهمتنا هي أسر جواد، سنحاصر المدينة لأيام طويلة حتى نستطيع اقتحامها.. كما ينبغي علينا قطع الطريق بينهم وبين مدينة النجوم السبع.

ونظر إليهم في انتظار أى تساؤل، وعندما لم يتكلم أحدهم، قال وهو يستعد للوقوف:

- سأقيم في مبنى الجيش في الأيام المقبلة لأشرف على التدريب، وسنتحرك في غضون أيام، سيستغرق الطريق من ثلاثة لأربعة أيام.

وخرج شادي مع القائد جلال الدين، والقائد وهدان، لمتابعة الترتيبات، ومن توجه إلى الفرقة التي سيتولى قيادتها وبدأ تدريباته معهم، ومع غروب الشمس كان الخدم قد جهزوا له إحدى الغرف في مبنى الجيش، كانت أقل فخامةكثيرًا من غرفته في القلعة ، ولكنه لم يهتم فقد كان تفكيره محصورًا في أهمية نجاح خطته.

استلقى شادي ليرتاح قليلا، حين دخل أحد الحرس ليخبره أن قائد الحرس الملكي الأمير جاسم يريد مقابلته.

كان الأمير جاسم بقامته الطويلة وجسده المشدود ومظهره المهيب الذي يختلف تمامًا عن أخيه الحاكم نور الدين يقف في انتظار شادي، والذي ما أن أصبحا بمفردهما حتى قال له بغضب:

- ما الذي تعتقد أنك تفعله أيها الأمير ؟

تعجب شادي من طريقة عمه، فقال:

- لا أعتقد أن لك دخلا فيما أقوم به؟

بدا الغضب يزداد على وجه الأمير جاسم الذي تابع بحدة:

- أنت تعرض أمننا للخطر بتلك الطريقة.

فاقترب منه شادي وقال له بهدوء ولكن بحسم:

- لن تنجح فيما تخطط له، أعرف أنك من أقنع الحاكم بنقل شهندا إلى زنازين الجيش، وأنت من شجعه على خطة مساومة جواد، ولكن صدقني لن ينجح هذا.

لم يبد أن الأمير جاسم يعرف ما يقوله، فعم الصمت لثوانٍ، قال بعدها جاسم بهدوء مماثل لهدوء شادي:

- اسمع جيدًا، لا تغتر بنفسك. ..ولا تقلل مني كذلك.

وترك شادي وانصرف، فعاد شادي إلى غرفته وكله إصرار على نجاح خطته، وتساؤل فيما يخطط له عمه الأمير جاسم.

* * *

كانت الشمس ترتفع فوق رؤسهم حينما بدأت تلوح في الأفق أسوار مدينة كوكب الأبيض و الأسود، كانت المسافة التي تفصلهم عن المدينة لا يتجاوز الألف قدم.

فأمرهم شادي بأن يقيموا الخيام والمعسكرات، وأمر بارسال رسول إلى جواد يطالبه بتسليم المدينة له.

وأمر جنوده بالانتشار في مواقع متعددة ليوحي لعدوه بكثرة حجمه وقوته.

* * *

(20)

حرية

لم يعد رسول شادي الذي أرسله لجواد، واستمر الحصار لثلاثة أيام قبل أن يبدأ الرماة فوق أسوار مدينة كوكب الأبيض و الأسود في مهاجمتهم من حين إلى آخر، وكانت تلك هي الإشارة التي ينتظرها شادي، فمعني مهاجمتهم لجنود شادي الآن أن قدرته على التحمل بدأت في النفاذ وبدءوا ينزعجون من أمر الحصار.

أمر شادي جنوده بالرد على الهجوم وبالتركيز على أضعاف مراكز المراقبة لديهم، فقد كانت تحيط بالأسوار سبعة أبراج، ثلاثة أبراج للمراقبة وأربعة لإطلاق السهام النارية.

obeikan.com

بدأ شادي في مهاجمة أبراج المراقبة، وقبل حلول المساء كان اثنان منهما قد اشتعلا تمامًا، وواحد على وشك الانهيار، دفع هذا جنود كوكب الأبيض و الأسود إلى مهاجمتهم بقوة أكبر، واستمرت المعركة حتى صباح اليوم التالي.

بدا لشادي وجنوده وهم يبدءون اليوم الخامس للحصار أنه لا أمل لهم لإنهاء هذا الحصار، وأنه لا أمل لهم لدخول المدينة ، ولكنه حاول اخفاء هذا الشعور على قادة الجيش الذين معه.

كان الشيء المشجع هو قله عدد القتلى والذي كان شادي واثقًا أنه سيتضاعف إن استمر الأمر على هذا المنوال، كما أن القبائل والمدن المحيطة آثرت عدم التدخل، وقد أغلقت كل مدينة بابها على نفسها وآثرت السلامة، وكان هذا عاملا مريحًا لشادي وجنوده.

قبل حلول مساء اليوم السادس كان اثنان من أبراج إطلاق السهام قد اشتعل تمامًا مما حمس جنود شادي ليواصلوا هجومهم بقوة أكثر.

بدا على جنود كوكب الأبيض و الأسود الارتباك، وهذا ما أكده عودة رسول شادي بصحبته رسول من جواد.

استقبل شادي رسول جواد متعمدًا أن يفاجئه بما يراه من قوة وعتاد الجيش، وطلب منه أن يتلو فحوى رسالة جواد، كانت رسالة بلهجة قوية تدل على رغبة جواد في إنهاء تلك الحرب ومستعدًا للتفاوض.

أعاد شادي رسول جواد بلا إجابة، فقد استشعر في كلمات جواد ضعفه وفرصته الكبيرة في الانتصار عليه.

وقبل أن تشرق شمس اليوم الثامن كانت كل الأبراج المحيطة أسوار مدينة كوكب الأبيض و الأسود قد احترقت بالكامل، فأصدر شادي أمره بمهاجمة مدخل المدينة لاقتحامها، والتي كانت بالطبع مؤمنة بالكامل، ولكن هذا لم يوقفهم، فقد كان احتراق كل أبراج المدينة محمسا للجنود.

حاول جنود مدينة كوكب الأبيض و الأسود صد ضرباتهم، ولكنهم لم يكونا متكافئين، فجنود شادي منظمين جدًا، فهناك مجموعة توجه هجومها إلى مدخل المدينة ومحموعه أخرى تحميهم، ومجموعة مهمتها محاصرة الأسوار، ومجموعة تسدد الضربات لكل نقاط الضعف على طول الأسوار، كل هذا في نفس الوقت مما جعل من الصعب على جنود جواد الدفاع عن أنفسهم.

مر يوم كامل قبل أن يستطيع شادي أخيرًا أن يخترق مدخل المدينة ، وجد أن جواد وجنوده قد أحرقوا معظم مباني المدينة ، واختفى بحرسه، فلم يجد شادي أى فارس لمواجهته عندما دخل إلى المدينة ، فقط بعض العامة الذين حاولوا مهاجمة شادي وجنوده، ولكن شاد يأمر جنوده بألا يردوا عليهم الهجوم وأمر الشعب بأن يلزموا منازلهم لكي لا يصابوا بأذى.

لم تكن القلعة بعيدة عن المدخل، كانت عليها حراسة ضعيفة، بسهولة استطاع شادي ومن معه اقتحمها والبحث عن جواد.

أعلن شادي استيلاءه على قلعة العاصمة في مدينة كوكب الأبيض و الأسود، ورفع علم الأحلام فوقها، في الوقت الذي اكتشف فيه القائد

جلال الدين ممر سري تحت القلعة يقود إلى أقليم جنوبي في المدينة ، أمر شادي القائد بجاد بالبقاء في القلعة لحراستها وانطلق مع مجموعة من جنوده في اتجاه الجنوب.

كانت الشمس على وشك الشروق حين قابل شادي جواد والحرس الذين فروا معه، شعر شادي بالحماسة والقوة كما لم يكن من قبل، فقاتل كما لم يقاتل من قبل.

كان عدد الحرس الذين يرافقون جواد قليلا مما سهل على شادي الوصول إليه، وما إن تقابلا وجهًا لوجه حتى قال جواد:

- ها أنت مرة أخرى.

لم يجبه شادي، بل جعل كل تركيزه في ألا يهزم مرة أخرى .. في كيفية هزيمته، فقد كان جواد مقاتلا ماهرًا وهذا ما يعرفه شادي من لقائه السابق معه، ولم تكن مهارته تلك المرة أقل من سابقتها.

أخذ شادي يسدد ضرباته المتلاحقة والتي تفاداها جواد بكل سهولة، فكر شادي سريعًا إن كانت هزيمة جواد بالمبارزة صعبة، فعليه أن يلجأ إلى الحيلة، وهكذا تظاهر شادي بفقدان السيطرة على رماح، وحاول الابتعاد عن جواد قدر المستطاع، لاحظ جواد هذا، فاستغل الفرصة للقضاء عليه.

وعندما أصبح جواد على وشك تسديد ضربته إلى شادي صدها شادي بقوة ومن ثم هاجمه متعمدًا عدم قتله، فقد كان يحتاج إليه حيًا فهو وسيلة خروج شهندا.

أمر شادي بتقيد جواد جيدًا، وطلب من القائد بجاد أن يظل مع جنوده في المدينة وأمر أحد الحرس أن يجوب المدينة ويعلن سقوط جواد.

ومن ثم قرر العودة هو بجواد إلى مدينة الأحلام، فبالرغم من إرهاقه وتعبه إلا أنه لم يرغب في قضاء أى يوم آخر، فيكفي الأيام الثلاثه التى ستستغرقها رحلة العودة للأحلام.

* * *

استقبل قاسم شادي عند المدخل الجنوبي لمدينة الأحلام، والذي ما إن قابله حتى قال:

- تخرج للحرب دون أخذي معك.

فابتسم شادي وقال:

- ستكون معي في المرة القادمة.

فضحك قاسم وهو يقول:

- لقد وصلت أنباء انتصارك قبلك.

فابتسم شادي ولم يتكلم ، وسار في اتجاه العاصمة، لم ير شادي الطريق من الإقليم الجنوبي والعاصمة طويلة هكذا من قبل، فقد كان يشعر بالشوق لرؤية جواد داخل الزنزانة وشهندا خارجها.

كان الحاكم في انتظاره، وما إن وصل شادي حتى أمر بأخذ الأسرى إلى سجون الجيش وأمر بأن يصطحب جواد معه لمقابلة الحاكم أولاً.

وصل شادي لقاعة الحكم أولاً قبل أن يحضروا جواد، وما إن دخل شادي حتى قال الحاكم:

- لقد كنت مخطئًا في حقك بني.

فابتسم شادي وحيا الحاكم وقال:

- سيحضرون الآن القائد جواد المتهم بنقض معاهدة الجزيرة والاستيلاء على عرش مدينة كوكب الأبيض و الأسود، وتضليل ولية عهد المدينة الأميرة شهندا حمدان.

وما إن أنهى حديثه حتى دخل الحارس يخبرهم أن الجنود قد احضروا القائد جواد، دخل جواد إلىالقاعة ، وهو ينظر بحقد وغضب لشادي ،وما إن اقترب منه حتى قال:

- سأنتقم منك.

فأشار شادي للحارس الذي يقيده، فضربه الحارس قائلاً:

- انحنى في حضور مولاي الحاكم ومولاي ولي العهد.

فوقع جواد من أثر الضربة أرضا، حينها تكلم شادي:

- مولاي الحاكم.. هاهو المتهم في محاولة اغتيالك.

فقال الحاكم:

- ضعوه في سجون الجيش الآن، حتى نرى بأمره.

وما إن أخرج الحرس جواد حتى نظر شادي لوالده وقال:

- والآن. .. ماذا عن شهندا؟

فقال الحاكم بوجه جامد:

- إنها في سجن القلعة في سجون الأسرى، لقد أسقطت التهم عنها، يمكنها الذهاب.

وقبل أن يأمر الحاكم الحارس بالذهاب لإحضارها، قال شادي:

- اترك تلك المهمة لي.

وخرج من قاعة الحكم مسرعًا، متجهًا إلى زنازين الأسرى.

كانت كما اعتاد رؤيتها، تجلس على الأرض وتضم ساقها إلى صدرها، أمر الحارس بفتح الزنزانة وطلب منه ألا يغلقها.

اعتدلت هي ما إن سمعت صوته، ونظرت له، فاقترب منها شادي وقال:

- ما الذي تنتظرينه هنا؟ هيا لا تظلي هنا لثانية أخرى.

فقامت واقفة، ونظرت إلشادي وقد امتلأت عيناها بالدموع، فلم يستطع شادي منع ابتسامته من أن تتسع وتابع:

- لقد تم إلقاء القبض على جواد، إنه الآن في سجن الجيش، لن يخرج منها.

تزايدت كثافة الدموع في عينيها، فلم يمنع شادي نفسه من أن يرفع يديه ويمسح دموعها وهو يقول همسًا:

- أرجوك.. لا أرغب في أن أرى دموعك. .. أنت حرة.

فحاولت الابتسام واقتربت من باب الزنزانة وقالت بهمس:

- لقد أحببت البقاء هنا لأنه عرفني إليك.

فاقترب منها حين التفتت وأصبح ينظر مباشرة داخل عينيها الياقوتين، وترك لنفسه العنان ليسبح فيهما، حين قالت:

- خذني للحاكم.

وسارا معًا دون أن يتكلما في اتجاه قاعة الحكم، وما إن دخلت حتى انحنت للحاكم لتحييه ،ومن ثم قالت:

- مولاي الحاكم، لقد خدعت لسنين طويلة، والفضل لإفاقتي الآن لكم، أعتذر عما بدر مني وإن كان الاعتذار لا يجدي.

وخلعت خاتم الحكم من أصبعها وقدمته للحاكم متابعة:

- هذا هو خاتم حكم مدينة كوكب الأبيض و الأسود، لا أريده حول أصبعي مجددًا فلست أهلا له.

فكاد شادي أن يقول شيئًا، فنظرت له وتابعت:

- ليته في مدينتنا ما لمسته هنا. .. أنتم الأصلح لهذا.

وانحنت من جديد للحاكم وتابعت:

- اسمح لي مولاي.

واستدارت لتخرج من القاعة ، فناداها شادي فلم تجبه، فركض خلفها، وما إن أصبحت قريبة من مدخل القلعة حتى وقفت فلحق بها شادي قائلاً:

- هل سترحلين الآن؟

فقالت بصوت حزين دون أن تلتفت إليه:

- أعتقد هذا.

- أيتها الأميرة أنا. .

فقاطعته شهندا دون أن تنظر إليه قائلة:

- هل تعرف لما اخترت شعبان دونًا عن كل من في السوق.. لقد شعرت حين رأيته بشعور غريب، شعور مملوء بالثقة، وكأننى كنت أعرف أنه الوحيد الذي يستطيع مساعدتى.

وسكتت، فمد شادي يديه وأمسك بكتفيها وجعلها تستدير، كان يريد أن ينظر في عينيها، ليؤكد لها أنه لايزال كما قابلته في السوق، لم يكن يعرف كيف سيفعل هذا، ولكنه نظر في عينيها وقال:

- أنا شعبان.. وشعبان أنا.

فاحنت شهندا رأسها، في حين شعر شادي بالقوة والثقة، إنه قادر على قول ما يريد قوله:

- إلى أين ستذهبين؟ ابقى معى هنا.. للأبد.

فابتسمت بالرغم من الدموع التى تجمعت داخل عينيها ونظرت له، كانت أجمل من أى مرة نظر فيها شادي إليها، وقالت بهدوء:

- ليتنى أستطيع.

فقال شادي بقوة وقد أدرك أنه غير قادر على تركها ترحل هكذا:

- ابقي.

فنظرت في عينيه بقوة، ورأى في عينيها كل ما شعر به، فهم كيف صدقها بلا أدلة، لماذا حارب لأجلها، اتضح كل شئ أمامه في عينيها، أدرك أن حياته كلها تتمحور داخل عينيها، قالت:

- إنه قدرنا.. ومهما كان قدرنا سيئًا علينا السير على هداه.

لم يرد شادي أن يبعد عينيه عن عينيها، وظل يحدق فيهما واندفعت الكلمات من بين شفتيه:

- أحبك.. أنت أول من أحببت وآخر من سأحب.

فابتسمت واستدارت وقالت:

- حان وقت الفراق، سيبقى بيننا ظلام الليل وبعد السماء عن الأرض. . ولكني بقدر هذا البعد سأظل أحبك.

وسارت خطوات قليلة ومن ثم توقفت ورمت له بإحدى قلبي القلادة التى اشترتها منه في السوق وقالت:

- إلى اللقاء.

فهمس شادي بصوت مسموع:

- أعدك بألا يدخل قلبي سواك.

وركضت شهندا تجاه حريتها وأخذت تتلاشى مع أشعة الشمس الذهبية ودموعها تتناثر في الهواء كحبات اللؤلؤ

واختفت بينما ظل شادي يحدق في الفراغ أمامه، ثم اتجه للداخل بتباطئ. .

تمَّت بحمدِ الله

* * *

obeikan.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

Noon_publishing@yahoo.com

ت-02-35860372 011-27772007

obeikan.com